قيام الدولة العربية الإسلامية

في حياة محمد صلى الله عليه وسلم

الدكتور محمد جمال الدين سرور
أستاذ التاريخ الإسلامي
كلية الآداب — جامعة القاهرة

١٣٦٥
١٩٤٦
دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ
أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ
وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾

سورة آل عمران

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد اشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ، فهذا كتاب يتناول ناحية هامة من نواحى تاريخ العرب والإسلام يتجلى لنا منها فضل الدعوة الإسلامية على العرب ، فقد جعلت منهم أمة موحدة سياسياً ودينياً بعد أن كانوا شعوبا وقبائل متفرقة لاتجمعهم رابطة دينية ولايظلهم نظام معين ؛ ففى نجد وأطراف الحجاز كانت القبائل العربية تحيا حياة سياسية فطرية ولاتنقطع الحروب بينها ، وفى أطراف جزيرة العرب الجنوبية والشرقية والشمالية قامت عدة دويلات عربية ، اتخذت كل منها مايلائمها من نظام الحكم ، وفى بلاد الحجاز نشاهد مدناً ذات حياة سياسية خاصة .

وبينما كان يسود أقاليم جزيرة العرب ومدنها الاضطراب السياسى ويخضع بعض أطرافها للنفوذ الأجنبى ويهدد كيانها العصبية القبلية ، وتتقسمها الديانات والمذاهب المختلفة ، ظهر محمد ﷺ فى مكة المكرمة حيث أرسله الله تعالى بالهدى ودين الحق . فدعا فى بادىء الأمر القرشيين - وهم قومه وعشيرته - إلى الدخول فى الإسلام ليعاونوه فى نشر الدعوة الإسلامية ويكونوا عوناً له على مخالفيه . فلقيت دعوته قبولا من فريق منهم ؛ على حين ناهضه بعض زعمائهم اعتقاداً منهم أن الإسلام سيقضى على ماكانوا يتمتعون به من عز وسلطان . ومازالوا يقاومون دعوته ويناوئونه حتى أصبح بقاؤه

فى مكة محفوفا بالمخاطر ؛ فآثر الرحيل إلى المدينة مع صحابته من المسلمين .

بدأت الدولة العربية الإسلامية فى الظهور بالمدينة بعد أن هاجر إليها الرسول وحقق الوحدة بين المسلمين من أهلها ؛ ولم تلبث أن قوى شأنها بعد أن اضطر اليهود إلى الجلاء عن المدينة ، وأخذت هذه الدولة فى الاتساع تدريجياً تبعاً لانتشار الدعوة الإسلامية ؛ فبسطت سلطانها فى بادىء الأمر على مكة بعد نجاح الرسول فى القضاء على مقاومة قريش ونظامها القديم القائم على الوثنية . ثم شملت بلاد الحجاز بعد انضواء الطائف تحت لواء الإسلام . ولم تنته السنة العاشرة للهجرة حتى امتد نفوذها إلى أنحاء جزيرة العرب المختلفة .

ولما كان الرسول قد بعثه الله للناس جميعاً ، فطبيعى أن يوجه الدعوة الإسلامية إلى سائر بلاد العرب ، بل إلى خارجها . ولم تلبث جهوده فى هذا السبيل أن تكللت بالنجاح ؛ فعلت كلمة الإسلام فى تلك البلاد وارتبطت بعضها ببعض برباط وثيق بعد أن كانت مفككة العرى .

كذلك اهتم الرسول بتأمين حدود دولته الإسلامية المهددة بالخطر من ناحية الشمال ؛ فوجه المسلمين لغزو الأراضى الجنوبية ، لبلاد الشام ؛ ووضع بذلك أساس التوسع للدولة العربية الاسلامية خارج حدودها .

* * *

وقد بَدأتُ الكتاب ببحث مظاهر الحياة السياسية والدينية فى جزيرة العرب قبل الإسلام ، لأن دراسة قيام الدولة العربية الإسلامية تتطلب الإلمام بهذه الناحية من نواحى تاريخ العرب ، ثم تحدثت عن ظهور الدعوة الإسلامية فى مكة ، والجهود التى بذلها الرسول الكريم فى نشرها ، ومالاقاه فى سبيل ذلك من شدائد ، اضطرته إلى اتخاذ المدينة دار هجرة للمسلمين .

كذلك تناولت بالبحث سياسة الرسول بعد هجرته إلى المدينة ، فوضحت كيف وحد كلمة المسلمين بها ، ونظم الحياة العامة فيها ، ثم تتبعت موقفه من قريش وحلفائها من عرب الحجاز وبينت الجهود التى بذلها للقضاء على مقاومة هذه القبيلة ، وما كان لذلك من أثر فى بسط سلطان الإسلام على بلاد الحجاز .

وعُنيت أيضاً بشرح الظروف التى اضطرت الرسول إلى إجلاء اليهود عن المدينة ، كما تحدثت عن تتبعه لحركاتهم بعد أن اجتمع شملهم فى خيبر ، مما ترتب عليه ضعف شأنهم بالحجاز .

وكان لتوجيه الدعوة الإسلامية إلى خارج بلاد الحجاز نصيب وافر من اهتمامى ، فوضحت السياسة التى اتبعها الرسول لتحقيق ماورد فى القرآن من مطالبة الناس جميعاً بقبول الإسلام ، وتتبعت جهوده لتأمين حدود بلاد العرب الشمالية وتوطيد سلطان المسلمين عليها ، ثم بينت كيف استجابت القبائل العربية لدعوة الرسول وانضوت تحت لوائه مما ساعد على توطيد أركان الدولة العربية الإسلامية .

والله أسأل أن يوفقنى إلى كشف نواحى تاريخ الإسلام والعرب الحافل بأسباب العظمة والمجد .

محمد جمال الدين سرور

أول رجب ١٣٧١ هـ

القاهرة فى

٢٧ مـــارس ١٩٥٢ م

فهرس موضوعات الكتاب

الباب الأول
الحياة السياسية والدينية فى جزيرة العرب قبل الإسلام

الباب الثانى
ظهور الدعوة الإسلامية

صفحة

صفحة

اللوحات

الباب الأول

الحياة السياسية والدينية فى
جزيرة العرب قبل الإسلام

١- المظهر السياسى للقبائل العربية فى بادية العرب

٢- الممالك العربية

٣- مدن الحجاز

٤- الحياة الدينية عند العرب

الحياة السياسية والدينية فى جزيرة العرب قبل الاسلام

تمهيد : كانت جزيرة العرب مسكناً لأكثر العناصر العربية ، ويتألف غربها من إقليمين كبيرين : الحجاز شمالا ، واليمن جنوبا ، ويمتد الحجاز من أيلة (على رأس خليج العقبة) إلى اليمن ، وفى جنوبه بلاد اليمن ، وهى تشمل الزاوية الغربية الجنوبية من الجزيرة . أما الزاوية الجنوبية الشرقية منها ، فيقع فيها إقليم عمان ، وهو قطر جبلى على شاطىء البحر . وهناك بجزيرة العرب جزء مرتفع يمتد من جبال الحجاز ، ويسير شرقا إلى صحرء البحرين يسمى نجداً ، وبين نجد واليمن إقليم اليمامة وهو يتصل بالبحرين شرقاً وبالحجاز غرباً .

لم يكن هناك فى بلاد العرب قبل الإسلام دولة عربية ، بل كان بها وحدات سياسية مستقلة تعرف بالقبائل ؛ وهذه الحالة نلحظها فى الجهات الصحراوية التى فى أواسط جزيرة العرب مثل نجد وأطراف الحجاز . أما فى الحجاز فنجد مدناً ذات حياة سياسية خاصة ، كذلك كان بأطراف جزيرة العرب فى الجنوب ممالك اليمن ، وفى الشمال الشرقى مملكة الحيرة ، وفى الشمال الغربى دولة الغساسنة ، ومن ذلك يتضح عدم وجود حكومة مركزية فى بلاد العرب .

١ ـ المظهر السياسى للقبائل العربية فى بادية العرب

كانت القبائل العربية فى نجد وأطراف الحجاز ، تحيا حياة سياسية فطرية . وقد حرص بعضها على الدخول فى رعاية إحدى الدول الكبرى المعاصرة لها لما فطر عليه أهل البادية من التنازع والتخاصم ؛ فسعوا فى الانضمام إلى الدول

العربية المتحضرة للاستنجاد بها ، كما سعى بعضهم إلى التقرب منها للتفاخر بخدمتها ؛ فكان بنو يربوع يتفاخرون برعاية أمراء الحيرة لهم (١) ، وقد دخلت بعض قبائل البادية فى رعاية دولة حمير ببلاد اليمن ، فصاروا يؤدون لها الإتاوة كل عام . أما الدول العربية الأخرى فكانت علاقات هذه القبائل معها فى كثير من الأحيان تنحصر فى عقد محالفات بينها وبينهم ؛ فالمناذرة كانوا يقربونهم إليهم ليستعينوا بهم على الغساسنة ؛ وكذلك كان يفعل هؤلاء للاستعانة بهم على المناذرة .

كانت القبيلة من أهل البادية إذا دخلت فى رعاية دولة عربية كدولة حمير ، طلبت إليها أن تولى عليها أميراً ؛ فتختار لها أحد أمراء تلك القبيلة أو أحد أفراد القبائل المعروفة بالقوة والسيطرة .

كان زهُير بن جناب الكلابى من أشهر من تولى الرئاسة على بدو الشمال تحت رعاية دولة حمير . وبلغ من تقدير حاكم هذه الدولة له أن ولاه الإمارة على قبائل بكر وتغلب ؛ فصار يدير شئونهم ويأخذ منهم الإتاوة . على أن هذه القبائل لم تظل طويلا خاضعة لزهير بن جناب ، ذلك لما أصابهم فى أثناء إمارته ضيق وأجدبت أرضهم ، تأخروا فى دفع الإتاوة المقررة عليهم ، فجاءهم زهير وألح فى مطالبتهم بها ، فشكوا إليه عجزهم ، غير أنه لم يصغ لشكواهم فنقموا عليه ؛ فأجابهم على ذلك بإعداده جيشاً من أهل اليمن ، غزا به بكرا وتغلب ، وقاتلهم قتالا شديداً ، انتهى الأمر فيه بهزيمتهم وأسر كليب ومهلهل ابنى ربيعة ، كما أسر جماعة من زعماء بنى تغلب ، فعظم ذلك على قبائل ربيعة وولوا عليهم ربيعة والد كليب ، وخرجوا على زهير وأنقذوا الأسيرين منه(٢) .

ولما توفى ربيعة أمير وائل خلفه ابنه كليب ـ وكان يضمر الحقد على

(١) جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ص ٢١٢ .
(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج١ ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .

اليمنيين - فجمع تحت لوائه ربيعة وقضاعة ومضر وإياد ونزار وحارب اليمنيين فى معركة عرفت بيوم خزاز[١] وأوقع بهم الهزيمة وتخلص من سيادتهم[٢] . وهكذا علت مكانة كليب بين عشيرته ، فولوه الملك عليهم ودانوا له بالطاعة ، وخرجوا بذلك عن سلطان اليمن[٣] .

على أن خروج هذه القبائل من رعاية اليمن لم يؤد إلى تمتعهم بالاستقلال التام وإنشائهم دولا مستقلة لتغلب البداوة على طباعهم واستمرار النزاع والتخاصم والحروب فيما بينهم أو مع سواهم .

كانت الحروب التى تقع بين القبائل العربية فى ذلك العهد تسمى الأيام ، ويرجع السبب فى قيامها إلى عوامل مادية ، كطلب المرعى ، أو غير مادية كالأخذ بالثأر . وإذا وقعت الحرب بين قبيلتين ودارت الدائرة على إحداهما ، فإما أن ترضخ القبيلة المنهزمة أو تتحين الفرصة للانتقام فى وقت آخر ، وكانت الحرب لاتعد منتهية بين الفريقين إلا بعد أن يأخذ الفريق كثير القتلى الدية من الفريق الآخر الذى قتلاه أقل .

لم تنقطع الحروب بين القبائل العربية فى نجد وأطراف الحجاز ، ومن بين هذه القبائل ربيعة ومضر ؛ وتعدان من أقوى القبائل العدنانية وأكثرها رجالا . وكانت تنتقل فى نجد واليمامة والحجاز سعياً وراء الماء والمرعى والغنائم . وكانت كل منهما تغزو أرض الأخرى طمعاً فى مالها من إبل أو ماشية أو ماء أو مرعى أو للأخذ بالثأر . وكثيراً ما كانت المعارك الحربية تقوم بين قبائل من ربيعة وقبائل مضر أو بين قبائل ربيعة نفسها أو بين قبائل مضر .

---

(١) جبل مابين البصرة إلى مكة .

(٢) Nichlson Literary His Lory of the Alabs P.S

(٣) ابن الأثير : ج ١ ص ١٨٦ ، جرجى زيدان ، العرب قبل الاسلام ص ٢٢٢ - ٢٢٤ .

ومن الوقائع التى جرت بين قبيلة تميم من مضر ، وبكر بن وائل من ربيعة يوم الغبيط[١] ، فقد سار جمع من بنى شيبان على رأسهم بسطام بن قيس إلى بلاد تميم ، فأغاروا على بعض عشائرهم فى صحراء فَلج[٢] ، ودار القتال بينهم ، ولحقت الهزيمة بالتميميين وقتل منهم عدد كبير ؛ وغنم بنو شيبان أموالهم ، ثم مروا فى طريقهم على مالك بن حنظلة من تميم ، وهم بين صحراء فلج وغبيط المدرة ، فأخذوا إبلهم ؛ ولما بلغ ذلك بنى يربوع أكبروا هذا التعدى ؛ وساروا بقيادة عتيبة بن الحرث اليربوعى فى إثر بني شيبان ، فلحقوا بهم بغبيط المدرة وقاتلوهم ، ثم انهزمت شيبان واستعادت تميم أموالها ، ولحق عتيبة ببسطام وأشار عليه اليربوعيون بقتله ، لكنه أبى وسار به إلى بنى عامر بن صعصعة لئلا يؤخذ فيقتل . فلما توسط عتيبة بيوت بنى عامر ، صاح بسطام واشيباناه ولاشيبان لى اليوم . فبعث إليه عامر بن الطفيل « إن استطعت أن تلجأ إلى قبتى فافعل ، فإنى سأمنعك ، وإن لم تستطع فاقذف بنفسك إلى الركى[٣] التى خلف بيوتنا » ، ولما علم عتيبة بذلك أتى ابن الطفيل وقال له : قد بلغنى الذى أرسلت به إلى بسطام ، فأنا مخيرك فيه خصالا ثلاثا ، فقال عامر : وماهى ؛ قال : إن شئت فاعطنى خلعتك وخلعة أهل بيتك حتى أطلقه لك ، فقال عامر : هذا ما لاسبيل إليه ، فقال عتيبة : تتبعنى إذا جاورت هذه الرابية فتقارعنى عنه على الموت ، فإما لى وإما على ، فقال عامر : هذه أبغضهن إلى ، فانصرف عتيبه ببسطام . ولما شاهد بسطام ركب أم عتيبة ، قال : ياعتيبه أهذا رحل أمك ؟ ، قال نعم ، قال مارأيت رحل أم سيد قط مثل هذا ، إن ركب

(١) الغبيط : أرض لبنى يربوع .

(٢) واد لبنى النير بن عمرو بن تميم يقع أول الدهناء ، حاشية رقم ١ ـ كتاب أيام العرب فى الجاهلية ص١٩٧ .

(٣) جمع ركية وهى البئر . حاشية رقم ١ أيام العرب ص١٩٩ .

أمك لرث ، فقال عتيبة : واللات والعزى لاأطلقك حتى تأتيني أمك بهودجها ـ وكان ذا قيمة كبيرة ـ ، ثم أرسل بسطام فأحضر هودوج أمه وفدى نفسه بأربعمائة بعير ، وقيل بألف بعير وثلاثين فرساً وهودج أمه . ونجا من الأسر[١] .

وكان يوم الزورين[٢] من بين الأيام التى حدثت بين بكر وتميم ، وسببه النزاع على الماء والمرعى ، ذلك أن بلاد بكر بن وائل أجدبت . فانتجعوا بلاد تميم (بين اليمامة وهجر) وتفاقم الشر بينهما بسبب ذلك حتى صار لايلقى بكرى تميمياً إلا قتله . ولايلقى تميمى بكرياً إلا قتله ، وإذا أصاب أحدهما مال الآخر ، أخذه ؛ ثم خرج الحوفزان بن شريك والوادك بن الحارث وكلاهما من شيبان ومعهما قوة من بكر ليغيرا على تميم ؛ وكانت تميم إذ ذاك قد اجتمعت فى جمع كثير ، وسارت إلى بكر بن وائل ، وعلى تميم أبو الرئيس الحنظلى ، فبلغ خبرهم بكر بن وائل . فتقدموا وعليهم الأصم عمرو بن قيس بن مسعود الشيبانى أبو مفروق ، وأقبلت على تميم ببعيرين مجللين مقرونين وجعلوا عندهما من يحفظهما وتركوهما بين الصفين معقولين وسموهما زورين (يعنى إلهين) ، وقالوا : لا نولى حتى يولى هذان البعيران ؛ فلما وقف أبومفروق على خبر البعيرين « قال : أنا زوريكم وبرج بين الصفين ، وقال : قاتلوا عنى ولاتفروا حتى أفر ، ثم التقى الفريقان ودار بينهما قتال شديد وذبحت شيبان البعيرين ، ولحقت الهزيمة ببنى تميم ، وقتل مقدمهم أبوالرئيس ، وغنمت بكر أموالهم ونساءهم وأخذت كثيرا من أسراهم[٣].

ومن الأيام التى أحرزت فيها تميم النصر على بكر يوم النباج[٤]

(١) ابن الأثير : ج ١ ص ٢١٨ ـ ٢١٩ . (٢) الزوران . بعيران مجللان .

(٣) ابن الأثير : ج١ ص٢٢٠ ـ ٢٢١

(٤) النباج . ماء على عشر مراحل من البصرة ، وثيتل ، ماء قرب النباج (ياقوت ج ٨ ص ٢٤٠ ـ ٢٤٤ ، ج ١ ص٣ .

وثيتل ، وسببه حب الغزو ؛ وكان زعيم تميم فى هذا اليوم قيس بن عاصم المنقرى الذى خرج مع بعض بطون تميم للاغارة على بكر وائل ، فلما وصل النباج سقى خيله ثم أراق ما مع رجاله من الماء ، وقال لهم : قاتلوا فالموت بين أيديكم والفلاة من ورائكم فأغاروا عل أهل النباج من بكر ، ودار القتال بين الفريقين وحلت الهزيمة ببكر ، ووقع فى يد قيس من غنائمهم مالا يحد كثرة وكان قيس قد أنفذ سلامة بن ظرب ليغزو مكاناً آخر للبكريين يعرف بثيتل فلما فرغ من النباج عاد مسرعاً نحو ثيتل ، فوجد سلامة ومن معه لم يغزوا بعد ، فأغار برجاله على ثيتل وأوقع بالبكريين وغنم منهم مثل ماغنم بالنباج(١).

كذلك دارت معارك بين تميم وقبائل أخرى نذكر من بينها يوم شعب جبلة ، وسببه أن لقيط بن زرارة سيد بنى تميم عزم على غزو بنى عامر ابن صعصعة للأخذ بثأر أخ له كان أسيراً عندهم ومات . وبينما كان يتجهز للقتال أتاه الخبر بحلف بنى عبس وبنى عامر ، فاستنجد لقيط ببنى ذبيان لعداوتهم لبنى عبس ، فأجابته غطفان كلها كما خرجت معه بنو أسد لحلف كان بينهم وبين غطفان ، وأقبلت تميم وأسد وذبيان نحو جبلة ، فلقوا فى طريقهم كرب بن صفوان من أشراف سعد ، فخافوا أن يطلع أعداءهم على خبرهم ، وسألوه لماذا لايصحبهم فى الغزو ، فقال . إنه يبحث عن إبل ضلت منه ، وتعهد ألا يخبر أحداً بمسيرهم ، ولكنه مالبث حين دنا من عامر وعبس أن أخذ خرقة وضع بها حنظلة وشوكا وترابا وخرقتين يمانيتين وخرقة حمراء وعشرة أحجار سود ، ثم رمى بها حيث يسقون ولم يتكلم ، فأخذها بعضهم وجاء بها الى قيس بن زهير أمير عبس ، فعلم مايعنى الرجل بهذه الأمور وقال : هذا رجل قد أخذ عليه عهد ألا يكلمكم ، فأخبركم أن أعداءكم مثل التراب كثرة وأن شوكتهم شديدة ، وأما الحنظلة فهى رؤساء القوم ، وأما الخرقتان اليمانيتان

(١) ابن الأثير : ج ١ ص٢٣٨

فهما حيان من اليمن معهم ، وأما الحرفة الحمراء فهى حاجب بن زرارة ، وأما الأحجار فهى عشر ليال يأتيكم القوم بها ، قد أنذرتكم فكونوا أحراراً واصبروا كما يصبر الأحرار الكرام » ، فأثنوا على حكمته واستشاروه فى ماذا يعملون فقال : « أدخلوا إبلكم هذه شعب جبلة ثم أظمئوها هذه الأيام لاتوردوها الماء ، فإذا جاء القوم أخرجوها عليهم وانحسوها بالسيف والرماح فتخرج مداعير عطاشا فتشغلهم وتفرق جمعهم واخرجوا أنتم فى آثارها » . ففعلوا ما أمرهم به وكثر القتل فى تميم ، وأسر جماعة من رؤسائهم وقتل لقيط بن زرارة ، وتمت هزيمة تميم وغطفان(١) .

ومن الأيام التى دارت الحرب فيها تميم وغيرها من القبائل القحطانية يوم الكلاب الثانى(٢)، وسببه أن رجلا من بنى قيس بن ثعلبة قدم نجران على بنى الحارث بن كعب ـ وهم أخواله ـ وحدثهم بما أصاب بنى تميم ، وأن أموالهم وذراريهم فى مساكنهم لامانع لها فاجتمعت بنو الحارث من مذحج وأحلافها فى عسكر عظيم ، بلغوا ثمانية آلاف ، ثم ساروا يريدون بنى تميم ، فحذرهم كاهن لهم ونصح لهم بألا يغزوا تميما . ولما بلغ الخبر تميما ، اجتمع ذوو الرأى منهم إلى أكثم بن صيفى الأسدى ، فأشار عليهم بأن ينزل حنظلة بن مالك بالدهناء ، وينزل سعد بن زيد مناه والرباب(٣) : الكلاب . وأوصاهم بألا يأخذوا معهم نساءهم ، وحذرهم الخلاف فقبلوا مشورته وقبلت مذحج ومن معها من قضاعة فقصدوا الكلاب ، واقتتل الفريقان قتالا شديداً ، وحمل بنو تميم على أهل اليمن حملة صادقة ، فانهزموا وبذلك تمت الغلبة لتميم على مذحج(٤)

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص٣١٤ ـ ٣١٦ .
(٢) الكلاب : اسم ماء بين الكوفة والبصرة حاشية رقم ٨ ص١٢٤ كتاب أيام العرب
(٣) كلاهما من تميم .
(٤) ابن الأثير : ج ١ ص٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

ومن الأيام التي وقعت بين قبائل ربيعة بعضها ماجرى بين بكر وتغلب ، نعني بها حرب البسوس ، وذلك أنه لما رفض وائل بن ربيعة الذي يلقب بكليب جموع اليمنيين وهزمهم ، اجتمعت تحت رايته كل قبائل معد وألبسته تاجا ، وجعلوه فى مقام الملوك ، وظل فترة من الزمن على هذه الحال ، ثم دخله زهو شديد ، وبغى على قومه حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمى مواقع السحاب فلا يرعى حماه ، فاتخذ لنفسه مساحة من الارض لايجسر أحد أن يطأها ، وصار إذا جلس لايمر أحد بين يديه إجلالا له ، ولايغير إلا بإذنه ولا توقد نار مع ناره ولم يكن بكرى ولا تغلبى أن يجير رجلا ولا بعيراً أو يحمى حمى إلا بأمره ، وتجاوز من سبقه من أصحاب الحمى ، فجعل حمايته تشمل كل أنواع الوحش حتى كان يقول : « وحش أرض كذا فى جوارى فلا يهاج »(١).

تزوج كليب جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان بن بكر ، ولها أخ اسمه جساس بن مرة ، وكان فارسا شهما فحدث ذات يوم أن قال كليب لامرأته جليلة : هل تعلمين على الارض أمنع منى ذمة ؟ فقالت : أخواى جساس وهمام ، فاستاء من هذا القول . وكانت لجساس خالة نزلت عليه اسمها البسوس بنت منقذ بن تميم . ولها ناقة ومعها فصيل لها ، فلما خرج غاضبا من قول زوجه جليلة رأى فصيل ناقة البسوس ، فرماه بقوسه ، فقتله ، وظل كليب ينقم على أخوى زوجته حتى إذا مرت به إبل جساس وفيها ناقة البسوس رمى ضرعها فولت ولها عجيج حتى بركت بفناء صاحبتها ؛ فلما رأتها البسوس صاحت : واذلاه ! فقال لها جساس : إنى سأقتل جملا أعظم من هذه الناقة ، سأقتل غلالا وهو فحل إبل لكليب لم ير فى زمانه مثله ـ وكان جساس يعنى بمقالته كليبا .

ولما مرت بعض قبائل بكر على بعض مواطن المياه منعهم كليب من

(١) كتاب أيام العرب ص ١٤٣

الاقتراب منها ؛ فساء ذلك جساس ، وقال لكليب : طردت أهلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم عطشاً ، فقال كليب : مامنعناهم من ماء إلا ونحن له شاغلون ، فقال له : هذا كفعلك بناقة خالتى . وكان جساس إذ ذاك راكبا فرسه . فعطف على كليب وطعنه برمح أرداه عن فرسه ، فقال : ياجساس أغثنى بشربة من ماء ، فلم يأته بشىء وقضى كليب نحبه ، ثم انصرف جساس إلى أهله راكبا فرسه وقد بدت ركبتاه ، فقال له أبوه : ماوراءك يابنى ؟ قال : ورائى أنى قد طعنت طعنة لتشغلن بها شيوخ وائل زمنا ، فقال له أبوه : ومن طعنت ؟ قال : قتلت كليبا : فقال له أبوه : « إذن نسلمك بجريرتك ، ونريق دمك فى صلاح العشيرة ، والله لبئس مافعلت ، ثم أخذ يتأهب للحرب فدعا قومه إلى نصرته فأجابوه .

لما علم مهلهل بقتل أخيه كليب ، أعدَّ نفسه للحرب ، وجمع قومه ، ثم جز شعره وقصر ثوبه وآلى على نفسه ألا يهتم بلهو ولايشم طيباً ولايشرب خمراً ولايدهن بدهن حتى يقتل بكل عضو من كليب رجلا من بكر بن وائل ، وحث بنى تغلب على الأخذ بالثأر ، وانطلق رهط من أشراف قومه حتى أتوا مرة والد جساس ، وقالوا له : « إنكم أتيتم أمراً عظيما بقتلكم كليبا بناقة ، وقطعتم الرحم ، وانتهكتم الحرمة ونحن نكره العجلة عليكم دون الإعذار ، وإننا نعرض عليكم خلالا أربعا لكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع : إما أن تحيى كليباً أو تدفع إلينا قاتله جساساً فنقلته به أو هماما فإنه كفء له ، أو تمكننا من نفسك فإن فيك وفاء لدمه » فقال لهم مرة : « أما إحيائى كليبا فلست قادراً عليه ، وأما دفعى جساساً إليكم فإنه غلام طعن طعنة على عجل وركب فرسه ولا أدرى أى بلاد قصد ، وأما همام فإنه أبوعشرة وأخو عشرة وعم عشرة وكلهم فرسان قومهم ، فلن يسلموه بجريرة غيره ، وأما أنا فما هو إلا أن تجول الخيل جولة فاكون أول قتيل ، فما أتعجل الموت ولكن لكم عندى خصلتان أما إحداهما فهؤلاء أبنائى الباقون ، فخذوا أيهم

شئتم فاقتلوه بصاحبكم وأما الأخرى فإنى أدفع إليكم ألف ناقة سود الحدق حمر الوبر » . فغضب القوم من إجابته ونشبت الحرب بينهم ولحقت جليلة بأبيها وقومها ، ودارت بين الفريقين عدة وقائع ، ومنها يوم عنيزة ، وكانا فيه متكافئين ، ثم التقوا بماء يقال له النهى كانت بنو شيبان نازلة عليه ، وكان رئيس تغلب مهلهل ورئيس شيبان الحارث بن مرة ، ودارت الدائرة فى هذا اليوم على بنى تغلب ، ثم التقى الفريقان بالذناب[1] حيث أحرز التغلبيون النصر ، وهكذا طال أمد النزاع بين بكر وتغلب ودامت الحرب بينهما التى عرفت بحرب البسوس أربعين سنة .

تكبد بنو بكر وتغلب كثيراً من الخسائر فى هذه الحرب ووجه مهلهل إلى قومه وصية ضمنها رغبته فى الإبقاء عليهم بعد مافقدوه من الأموال والأنفس من جراء القتال الدائر بينهم وبين بنى بكر فقال : « قد رأيت أن تبقوا على قومكم ، فإنهم يحبون صلاحكم وقد أتت على حربكم أربعون سنة ، وما لمتكم على ماكان من طلبكم بوتركم ، فلو مرت هذه السنون فى رفاهية عيش لكانت تمل من طولها فكيف وقد فنى الحيان ، وثكلت الأمهات ، ويتم الأولاد ، ورب نائحة لاتزال تصرخ فى النواحى ، ودموع لاترقأ ، وأجساد لاتدفن ، وسيوف مشهورة ، ورماح مشرعة ، وإن القوم سيرجون إليكم غدا بمودتكم ومواصلتهم . وتتعطف الأرحام حتى تتواصوا ، أما أنا فما تطيب نفسى أن أقيم فيكم ، ولاأستطيع أن أنظر إلى قاتل كليب ، وأخاف أن أحملكم على الاستئصال ، وأنا سائر عنكم إلى اليمن »[2] .

ومن ايام العرب التى وقعت بين القبائل المضرية حرب داحس والغبراء بين قبيلتى عبس وذبيان ، سببه قيس بن زهير سيد بنى عبس ، سار إلى المدينة ليتجهز لقتال بنى عامر وبأخذ بثأر اخيه زهير بن جذيمة الذى قتله

---

(١) الذناب . موضع بنجد (أبوعبيد البكرى : معجم مااستعجم ص٣٨٥)

(٢) ابن الأثير : ج١ ص١٩٣ ، كتاب أيام العرب ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

خالد بن جعفر الكلابى العامرى ، فأتى أحيحة بن الجلاح[1] يشترى منه درعا موصوفة تسعى ذات الحواشي ، فقال له : « لولا أن تذمنى بنو عامر لو هبتهالك » ثم باعه إياه ، وعاد قيس إلى قومه ، ومر اثناء عودته بالربيع ابن زياد العبسى - أحد زعماء عبس - فدعاه لمساعدته على الأخذ بثأر أبيه ، فأجابه إلى ذلك ولما رأى الربيع الدرع التى يحملها قيس أعجبته ولبسها واحتفظ بها لنفسه وأبى أن يردها إليه ، فحقد قيس على الربيع وعول على الانتقام منه ، فأغار على إبله وأخذ منها أربعمائة بعير وسار بها إلى مكة ، فباعها واشترى بثمنها خيلا ، كان من بينها فرسان اسماها داحس والغبراء ، وتبعه الربيع فلم يلحقه .

وكان أهل مكة يفاخرون قيسا أثناء وجوده بينهم بإقامتهم بجوار البيت الحرام فقال لهم : « نحوا كعبتكم عنا وحرمكم وهاتوا ماشئتم » فقال له عبدالله بن جدعان : « إذا لم نفاخر بالبيت المعمور والحرم الآمن فبم نفاخرك ؟ » ، فمل قيس مفاخرتهم وعزم على الرحيل عن مكة ، فسر ذلك قريشا لكراهتهم مفاخرته ولحق قيس ببنى بدر بن فزارة[2]

لما نزل قيس ببنى بدر أجاره حذيفة بن بدر سيد ذبيان ، وكان حذيفة يغدو ويروح إلى قيس فينظر إلى خيله فيحسده عليها ويكتم ذلك فى نفسه ، كما أنه كره قيسا وأراد إخراجه من جواره ، ولكنه لم يجد مبرراً لفعله ، فعدل عن ذلك .

لما سار قيس إلى مكة لأداء العمرة ، تفاخر فتى من عبس يقال له ورد بن مالك مع حذيفة فى الخيل ، ثم تراهنا على فرسين من خيل قيس ومن خيل حذيفة ، غير أن هذا الرهان لم يرض به قيس حين عاد من مكة ، وقال

(١) سيد الأوس قبل الإسلام ، حاشية رقم ٣ ص ٢٤٦ كتاب أيام العرب .
(٢) إحدى بطون ذبيان .

لحذيفة : علام تراهننى ؟ فقال حذيفة : على فرسيك داحس والغبراء وفرسى الخطار والحنفاء ، وأعدت معدات السباق ، وأضمر حذيفة الغدر بقيس ، فأقام رجلا من بنى أسد فى الطريق وأمر أن يلقى داحساً فى أسفل أحد الوديان إن جاء سابقاً ، فلما أرسلت الخيل سبقتها داحس سبقاً بيناً ، فعارضه الأسدى وألقاه فى الماء ، وكاد يغرق هو وراكبه ، ولم يخرج إلا بعد أن فاتته الخيل أما الغبراء فجاءت سابقة وتبعها الخطار ، ثم جاء داحس بعد ذلك والغلام يسير به على رسله .

ولما علم قيس بالمكيدة التى دبرت لفرسه رفض أن يعطى حذيفة مازعمه أنه حقه فى الرهان ، وقتل ابنه ندبة حين وفد إليه ، ونادى : يابنى عبس الرحيل . فرحلوا جميعهم ووقعت بسبب ذلك عدة وقائع بين قبيلتى عبس وذبيان ، كانت الحرب فيها سجالا يوما لذبيان ويوماً لعبس . ولما مل بنو عبس الحرب بعد أن فقدوا كثيراً من رجالهم وأموالهم بعثوا بوفد منهم إلى بنى ذبيان لوقف القتال ، وانتهى الأمر بعقد الصلح بينهم[١].

* * *

ومن الوقائع التى دارت بين القبائل المضرية يوم الفجار الأول ، وكان بين كنانة وقيس عيلان ، وقد عرف بذلك لأن القتال فيه وقع فى الشهر الحرام ؛ وسببه أن رجلا من بنى كنانة كان عليه دين لرجل من بنى نضر بن معاوية ابن بكر بن هوازن ، فقتل النضرى الكنانى وذهب إلى سوق عكاظ[٢] بقرد وصار ينادى « من يبيعنى مثل هذا بمالى على فلان الكنانى » . فلما طال نداؤه مر به رجل من كنانة ، فضرب القرد بسيفه وقتله ، فصرخ النضرى فى قيس وصرخ الكنانى فى كنانة ، فاجتمع الحيان وتحاوروا حتى

(١) ابن الأثير ج١ ص ٢٠٠ - ٢١٢ .

(٢) كانت تقام فيما بين نخلة والطائف ، ونخلة موضع قريب من مكة فيه نخل وكروم . (حاشية رقم ٧ ص٣٢٦ كتاب أيام العرب) .

كادت الحرب تقع بينهم ، ثم توسط عبدالله بن جدُعان فى عقد الصلح بين الفريقين[١].

كذلك وقع الفجار الثانى بين كنانة وقيس عيلان ، ولم يكن فى أيام العرب أشهر منه ، وسببه أن البراض بن قيس بن رافع الكنانى كان رجلا سكيراً خليعاً ، فخلعه قومه وتبرءوا منه لكثرة شره ، فخرج حتى قدم على النعمان ابن المنذر ملك الحيرة ـ وكان النعمان يبعث كل عام بلطيمة[٢] للتجارة إلى عكاظ تباع له ـ فقال النعمان : من يجيز لى لطيمتى هذه حتى يبلغها عكاظ ، فقال البراض : أبيت اللعن أنا أجيزها على بنى كنانة ، فقال النعمان : إنما أريد رجلا يجيزها على أهل نجد ، فقال عروة بن عتبة الكلابى وهو من قيس عيلان ـ وكان حاضرا إذ ذاك : « أكلب خليع يجيزها لك ، أبيت اللعن ، أنا أجيزها على أهل تهامة ونجد » ، فغضب البراض وقال : « وعلى كنانة تجيزها ياعروة ؟ » فقال عروة . « وعلى الناس كلهم » ، فدفع النعمان اللطيمة إلى عروة وأمره بالمسير بها ، وخرج البراض يتبع أثره ، وعروة يرى مكانه ولايخشاه ، حتى إذا كان بين قومه أدركه البراض بنواحى فدك ووثب عليه بالسيف فقتله وأخذ العير إلى خيبر وتبعه رجلان من قيس ، فاختال عليهما حتى قتلهما وسار بالعير إلى مكة ، وبعث رسولا إلى حرب بن أمية كبير قريش ، يخبره أنه قتل عروة ويحذره من قيس ، فبعث حرب بن أمية إلى أشراف قريش ـ ومنهم عبدالله بن جدعان وهشام بن المغيرة المخزومى ـ يخبرهم بذلك ، فاجتمعوا وتشاوروا وقالوا . نخشى أن تطلب قيس ثأر صاحبهم منا ولانرضى أن يقتل البراض به لأنه خليع ، ثم قابلوا أبا براء عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب سيد قيس وأخبروه

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ص٢٦ ، ابن الأثير : ج ١ ص٢١٤ .

(٢) اللطيمه : الجمل التى تحمل البزوالمسك . (حاشية رقم ٢ كتاب الإسلام السياسى ج١ ص٦٦) .

بما حدث وكاد الصلح يتم بين الفريقين لولا أن نفراً من قريش ـ كانوا فى عكاظ ـ بلغهم مافعله البراض فخشوا أن يكون قومهم فى مكة فى ضيق ، فساروا إليها لنصرتهم ، فلما بلغ عامر بن مالك سيد قيس ذلك عده غدراً وقال . غدرت قريش ، وخدعنى حرب بن أمية ، وأقسم ألا تنزل كنانة عكاظ أبداً ، ودار القتال بين القرشيين والقيسيين فى نخلة ، وكادت قريش تنهزم ، فلجأت إلى الحرم للاحتماء به ـ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم إذ ذاك وله من العمر عشرون سنة .

ولما دخلت قريش الحرم ، رجعت قيس عنها وقالت لهم : يامعشر قريش ، إنا لانترك دم عروة وميعادنا عكاظ فى العالم المقبل ، وانصرفت إلى بلادها يحرض بعضها بعضاً على الأخذ بالثأر ، ثم جمعت جموعها ومعها ثقيف وغيرها من قبائل العرب وجمعت قريش جموعها ومنهم كنانة وخرجوا فى الموعد وعلى رأسهم ـ حرب بن أمية ، وتقدمت قيس إلى عكاظ قبل قريش وعقل حرب نفسه ، وقيد سفيان وأبو العاص نفسيهما ، وقالوا : لن يبرح رجل منا مكانه حتى نموت أو نظفر ، فسموا يومئذ العنابس ، أى الأسود ، ودار القتال بين الفريقين ، فكان النصر أول النهار لقيس وانهزم كثير من بنى كنانة وقريش ، ولما انتصف النهار عاد الظفر لقريش وكنانة ، فقتلوا كثيرا من قيس وانتهى الأمر بانهزام قيس ثم تداعوا إلى الصلح واتفق الفريقان على أن يعدوا القتلى ، فإذا ماوجد فريق أن قتلاه زاد عددهم عن قتلى الفريق الآخر ، أخذ دية العدد الزائد من هذا الفريق ، وبذلك وضعت الحرب أوزارها بين قريش وقيس ، وتعاهدوا على ألا يؤذى بعضهم بعضاً فيما كان من أمر البراض وعروة(١) .

(١) ابن الأثير : ج ١ ص٢١٤ ـ ٢١٧ . كتاب أيام العرب ص ٣٢٦ ـ ٣٤١ .

٢ ـ الممالك العربية

أولا : دول اليمن :

كانت اليمن قبل الإسلام تنقسم إلى محافد جمع محفد ، والمحفد يشمل عدة قصور ، وكان القصر إذ ذاك كالحصن أو القلعة ، يحيط به سور ، ويقيم فيه شيخ أو أمير ، ويعرف صاحب المحفد أو القصر بلفظ « ذو » أى صاحب وكان يضاف هذا اللفظ إلى اسم المحفد فيقال « ذو غمدان » أى صاحب غمدان . (وذو معين) أى صاحب معين ، ومن أشهر المحافد : غمدان وناعظ وصرواح وسلحين بمأرب وظفار وبراقش ومعين[١] .

كان يحدث فى بعض الأحيان أن تجتمع عدة محافد ويتولى شئونها أمير واحد يسمى (قيل)[٢] ويطلق على مجموع المحافد مايلحقها من القرى والمزارع (مخلاف) .

كان الأقيال يغزو بعضهم بعضاً ، ويغير أحدهم على جاره ، وقد نجح بعضهم فى مد سلطانهم على جيرانهم ، وهؤلاء عرفوا بالملوك وأصبح محفدهم حاضرة لهم ، وتوالى الحكم فى أعقابهم ، وبهذه الوسيلة قام فى بلاد اليمن قبل الإسلام عدة دول أشهرها ثلاث .

١ ـ الدولة المعينية (١٣٠٠ ـ ٦٥٠ ق . م) : لم يرد لتلك الدولة ذكر فى كتب العرب ، لكنا وقفنا على أخبارها من النقوش التى كشفت فى جنوب جزيرة العرب ، وكذلك مما كتبه مؤرخو اليونان .

ورد فى النقوش المعينية أن الحكم فى هده الدولة كان ملكياً وراثياً ،

---

(١) الهمدانى : صفة جزيرة العرب ص٢٠٣ .

(٢) جمعه أقيال ، وسمى بذلك لأنه ذو القول أى إذا قال لم يرد أحد قوله . (حاشية رقم ٣ ، ابن هشام : سيرة النبى ، ج٤ ص٢٥٨) .

ينتقل من الأب إلى الابن وقد يشترك الاثنان معاً[١] . وقد حقق D . S Muller أسماء ستة وعشرين ملكاً من ملوكها . لكنا لانعرف شيئاً مفصلا عن أعمالهم ومدد حكمهم . ويستدل من تلك النقوش أيضاً أن نفوذ دولة معين امتد إلى شمال جزيرة العرب[٢] .

أقام المعينيون بمنطقة الجوف بين نجران وحضرموت ، واتخذوا قرناو عاصمة لهم [٣] وكانوا يشتغلون بالتجارة عملا بما تقتضيه طبيعة الإقليم الذى استقر مقامهم به ، واقتبسوا الأبجدية الفينيقية لتدوين حساباتهم لسهولة استعمالها ، ودونوا بها لغتهم[٤] .

٢ ـ دولة سبأ (١٩٥٠ ـ ١١٥ ق م) . أقام السبئيون بجوار المعينين واختلطوا بهم واقتبسوا لغتهم وعاداتهم وديانتهم . ولما اشتد ساعدهم قضوا على المعينيين وأسسوا دولتهم ، واتخذوا فى بادىء أمرهم قلعة صرواح حاضرة لهم[٥] .

كانت دولة سبأ ذات نظام ملكى وراثى ، ويستدل من مقابلة أسماء ملوك سبأ المدونة على آثار مأرب[٦]أن السبئيين تدرجوا فى الحكم من الإمارة البسيطة إلى الملك الواسع .

---

(1) O·leary ' Arabia before Muhammad P . 95

(2) Margoliouth ' The Relations between Arabs and Isaraelites Prior to the Rise of Islam P . 51

(3) Hittli . History of the Arabs , P .52 - 54

(٤) جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ج١ ص١١٣ ـ ١١٤ .

(5)— Hitti , History of the Arabs , P54

(٦) تقع مأرب على ارتفاع ٩٠٠ قدم فوق سطح البحر ، على بعد مائة كيلو متر إلى الشرق من صنعاء ، وكانت مركزاً هاماً للتجارة .

أما عن لفظ مأرب فهو آرامى الأصل ، مركب من « ماء » و « راب » أى الماء الكثير أو السيل الكبير .

Hitti . History of the Arabs P . 55

جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام .

مرت دولة سبأ بعصور مختلفة تتميز بالقاب ملوكها ، ففى العصر السبئى الأول الذى ينتهى سنة ٦٥٠ ق . م كان لقب القائم على أمور دولة سبأ « مكرب سبأ » وهذا اللقب يتضمن معنى الكهانة أى أن حاكم سبأ كان ملكاً وكاهناً[١] . أما فى العصر السبئى الثانى (٦٥٩ - ١١٥ ق . م) فنجد الحاكم تجرد من صفته الدينية وأصبح يطلق عليه « مالك سبأ » . وفى هذا العصر أصبحت مأرب عاصمة للسبئيين[٢] .

كانت دولة سبأ تتمتع بثروة عظيمة ، ولا أدل على ذلك من منشآتها وخاصة الخزانات التى منها سد مأرب ، ويعرف أيضا بسد العرم وهو بمدينة مأرب وقد تيسر لأهالى مأرب بواسطة هذا السد أن يرووا أرضهم رياً منظماً .

اتفق المؤرخون من العرب على أن السبب فى زوال هذه الدولة يرجع إلى تصدع سد مأرب ، إذا اضطر السبئيون بعد أن غمرت المياه ماحوله من القرى والمزارع إلى الرحيل من مأرب وتعمير بلدة ظفار ، ثم أخذوا بعد ذلك ينزحون إلى الجهات الشمالية والشرقية من جزيرة العرب ، فهاجر بنو غسان إلى حوران ، وبنو لخم إلى أرض الحيرة . وقد جعل الغساسنة حادثة إنفجار السد بداية عهدهم الجديد وصاروا يؤرخون بها حوادثهم[٣].

٣ - دولة حمير (١١٥ ق . م - ٥٢٥م) : كان الحميريون يقيمون فى ريدان التى عرفت أيضاً باسم ظفار . ولما تغلبوا على إخوانهم السبئيين صار لقب كبيرهم (ملك سبأ وذو ريدان) ومنذ ذلك الوقت بدأت دولة حمير الأولى التى ظلت قائمة حتى سنة ٣٠٠ م . وكانت عاصمة الأسرة الحميرية

(1) Nicholson , Literary History If the Arabs P . 10

(2) Hitti , History of the Arabs P . 54 - 55

(3) Hitti , History of the Arabs P . 64 - 65

أخذت قوة عرب الجنوب فى الضعف خلال عهد الدولة الحميرية الأولى ، ذلك أن زمام احتكار التجارة البحرية فى البحر الأحمر أخذ يفلت من بين أيديهم . وقد بدأت أول محاولة لانتزاع سيادة عرب اليمن على البحر الأحمر منذ أعاد بطليموس الثانى فتح القناة التى تصل النيل بذلك البحر[٢] .

أما دولة حمير الثانية فتبدأ حوالى سنة ٣٠٠م . حيث أصبح اللقب الملكى فى جنوب جزيرة العرب (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمْنات)[٣] وقد لقب بهذا اللقب الجديد شمريرعش[٤] (٢٨٠ - ٣٠٠م) وهو من أشهر ملوك حمير . ويروى مؤرخو العرب أنه غزا أرض العراق وفارس وخراسان وافتتح مدائنها وخرب مدينة الصغد وراء نهر جيجون وبنى مدينة هناك عرفت بشمرقند وهى التى تعرف باسم سمر قند[٥] .

وكانت مدينة حمير موضع تنافس بين كل من الدولة الساسانية فى فارس والدولة الرومانية الشرقية . وقد استخدمت هذه الدولة السلاح الدينى فى بسط سيادتها فنشرت المسيحية فى بلاد الحبشة ، كما أدخلت هذه الديانة إلى بلاد اليمن نفسها ، وأصبح فى نجران جالية نصرانية قوية . وكان الروم يرمون من وراء نشر المسيحية فى هذه البلاد أن يكون لهم نفوذ سياسى واقتصادى فيها فصارت تجارتهم تسير بين الخليج الفارسى والبحر الأحمر

(1) Hitti , History of the Arabs P. 55 - 58

(2) Hitti , History of the Arabe P. 58 -59

(3) Hitti , History of the Arabs P. 60

(4) Philby , The bachground of islam P. 100 - 111

(٥) ابن هشام : كتاب التيجان فى ملوك حمير ص٢٢٢ ، جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ج١ ص١٢٤

مارة ببلاد اليمن ، الأمر الذى استاء منه العرب وحملهم على مضايقة الروم والوقوف فى وجه تجارتهم .

كان الفرس فى هذه الأثناء قد وقفوا على ما يرمى إليه الروم من وراء نشر المسيحية فى بلاد اليمن ، فعمدوا إلى عرقلة مجهوداتهم فى سبيل تنمية متاجرهم الشرقية ، فبعثوا بفريق من جندهم إلى شواطىء الخليج الفارسى من ناحية حدود جزيرة العرب . ولما علم بذلك قيصر الروم أرسل إلى بنى حمير يحرضهم ضد الفرس فلم يجيبوا طلبه . وظلوا يعترضون تجارة الروم أثناء اجتيازهم اليمن بتجارتهم الهندية مما كان سبباً فى وقوف حركتها [١] .

كذلك انتشرت اليهودية باليمن فى عهد الدولة الحميرية الثانية ، واشتد ساعدها فى أوائل القرن السادس الميلادى ، بحيث أن آخر ملوك حمير وهو ذو نواس كان يهودياً

اشتدت المنافسة بين عرب الجنوب الذين انضموا تحت لواء هاتين الديانتين . وكان ذو نواس يمثل الروح القومية فى البلاد ، فرأى فى النصارى من مواطنيه مايذكره بسيادة الأحباش المسيحيين [٢] . فقام بهجوم عنيف على نجران حوالى سنة ٥٢٢م ، وخير أهلها الذين كانوا يدينون بالمسيحية بين الارتداد عن دينهم أو الاستشهاد ، فوقفوا منه موقفاً حازماً تحت رئاسة أمرائهم وقساوستهم ، فأبيدوا دون رحمة فى الخنادق التى أعدت لإحراقهم [٣] .

لما بلغ الامبراطور البيزنطى Justin ماحل بأهل نجران من التنكيل كتب إلى نجاشى الحبشة يحرضه على جزيرة العرب [٤] فأنفذ حملة تحت

---

(١) جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ص١٣٨ .

(2) Hitti, History of the Arabs P — 62.

(3) Philby, The background of Islam P. 119.

(4) Margoliouth, the Relation between Arabs and Israelites Prior, to Rise of Islam P, 65.

قيادة أرياط لفتح بلاد اليمن . فتغلب أرياط على ذى نواس وقبض على زمام الأمور فى بلاد حمير . وظل يحكم هذه البلاد إلى أن أخذ عليه قواده انحيازه الى فريق منهم فى توزيع العطاء والغنائم ، فاجتمعوا بقيادة أبرهة وقضوا عليه وبذلك خلا الجو لأبرهة ، فولى الحكم فى بلاد حمير بدلا من أرياط[١].

لم يلبث الأحباش بعد أن دخلوا بلاد اليمن أن عملوا على استغلال أراضيها واستثمارها ، كما وجهوا اهتمامهم إلى نشر النصرانية بين أهلها ، فبنى أبرهة فى صنعاء كنيسة كبيرة تعد من أفخر الكنائس التى بنيت فى هذا العصر ، وكان يطمع أبرهة فى تحويل حجاج العرب إليها ، فأرسل جيشاً لهدم الكعبة بمكة ، لكن حملته أصيبت بالفشل ، وتعرض هو وجنده لمختلف الأمراض ، ثم توفى بعد عودته منهزماً[٢] ،

لم يمض غير قليل على تلك الهزيمة التى منيت بها حملة أبرهة حتى قامت حركة وطنية فى دولة حمير لتخليص اليمن من حكم الأحباش ، وكان على رأس هذه الحركة سيف بن ذى يزن الحميرى الذى سعى فى إنقاذ قومه من الأحباش ، فسار إلى ملك الحيرة ليتوسط له لدى كسرى أنو شروان ليمده بقوة يستعين بها فى إخراج الأحباش من بلاد اليمن .

وكان العرب المسيحيون فى تلك البلاد يتطلعون إلى الحماية والرعاية من الروم كما كان اليهود والوثنيون من العرب يلوذون بالفرس ويطلبون العون منهم . فلما استنجد سيف بن ذى يزن بكسرى فلوس ، أمده بحملة سنة ٥٧٥م تحت قيادة وهرز ، وقد تغلب هذا القائد على الأحباش فى اليمن وأنقذ هذه البلاد من حكمهم البغيض .

قامت على أثر ذلك فى بلاد اليمن حكومة مشتركة ،تقلد سيف بن ذى يز ـ

(١) جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ص١٣٠ .
(٢) فيليب حتى : تاريخ العرب ج ١ ص ٨٣ ـ ٨٤ .

فيها ولاية اسمية[١] . وانتحل وهرز وظيفة نائب ملك فى تلك البلاد التى أصبحت منذ ذلك الوقت إحدى أقاليم الامبراطورية الفارسية .

على أن سيطرة الفرس على اليمن لم تدم طويلا ، فقد انسلخت عنها تلك البلاد حين اعتنق باذان آخر ولاة الفرس على اليمن الإسلام ودخل فى طاعة الرسول[٢] .

ثانيا ـ مملكة الحيرة :

كان العرب في العصور القديمة يفدون إلى تخوم جزيرتهم الشرقية ، حتى إذا وصلوا وادى الفرات أقاموا فى ربوعة ، وفى أوائل القرن الثالث الميلادى بدأت تفد قبائل من تنوخ ترجع إلى أصل يمنى ، فاتخذت لها مساكن فى المنطقة الخصبة الواقعة إلى الغرب من الفرات . وقد وافق قدومهم قيام الدولة الساسانية فى فارس ، وكان التنوخيّون يعيشون فى بداية أمرهم فى خيام ؛ ومن ثم أصبح مخيمهم قاعدة تعرف بالحيرة (من السريانية حرتا أى مخيم) ، وتقع على بعد ثلاثة أميال جنوباً من الكوفة .

أما عن سكان الحيرة الأصليين ، فكانوا من قبائل شتى من بطون العرب ، اعتنقوا النصرانية على مذهب الكنيسة السورية الشرقية التى عرفت فيما بعد بالنسطورية[٣] .

أطلق مؤرخو العرب على هذه القبائل العباد ، وقيل فى سبب تسميتهم بالعباد ، أنهم اتخذوا شعاراً لهم : ياآل عباد الله ، حين حاربهم سابور الأكبر كسرى الفرس ، وقيل أيضا أنهم عرفوا بذلك لأنهم كانوا يعبدون الله[٤] .

Hitti History of the Arabs P. 65 - 66 (1)

Philbsinm P 81kqround of Islam P 124 - 125 (2)

Hitti, History of the Arabs P. 81. (3)

(٤) البكرى : معجم ماستعجم ج١ ص٢٥ .

لما قامت الدولة الساسانية فى فارس حاولت طرد العرب من تخوم دولتها لكنها لم تستطع ذلك ورأت من حسن السياسة الانتفاع بهم ، فأسست إمارة الحيرة سنة ٢٤٠ م ، وعينت عمراً بن نصر بن ربيعة بن لخم أميراً عليها ، وظلت أسرته تتقلد زمام الحكم فيها حتى دخلت فى حوزة الدولة العربية الإسلامية فى خلافة أبى بكر الصديق .

كانت العلاقة بين دولة فارس وإمارة الحيرة قائمة على أساس أن يقدم عرب الحيرة الطاعة لكسرى فارس وهو يولى عليهم أميراً من بينهم . وعليهم أن يصدوا كل مغير يحاول الاغارة على بلاد الفرس من نواحيهم ، وفى مقابل ذلك يعفون من دفع الإتاوة .

ساعدت إمارة الحيرة دولة فارس فى حروبها التى أعلنتها على الدولة الرومانية الشرقية ، فلبى أميرها المنذر الثالث بن أمرىء القيس الملقب بابن ماء السماء (٥٠٥ ـ ٥٥٤م) دعوة كسرى الفرس وأوقع الهزيمة بالروم . واضطر الامبراطور الرومانى جستنيان إلى عقد الصلح سنة ٥٣٢ م ، كان من شروطه أن يدفع الروم مبلغاً من المال لملك الفرس والمنذر .

على أن ملوك الفرس من الساسانيين عدلوا فى أواخر القرن السادس الميلادى وأوائل القرن السابع عن سياسة استخدام عرب الحيرة فى أداء أغراضهم الحربية والسياسية ، كما عمدوا إلى إزالة استقلال هذه المملكة وصاروا يتدخلون فى تولية أمرائها ، فولى النعمان بن المنذر الذى يكنى بأبى قابوس الحيرة (٥٩٠ ـ ٦٠٣م) بمساعدة عدى بن زيد العبادى[١] . وهو أحد رجال بلاط كسرى أنو شروان[٢] .

وكان بالحيرة حزب آخر يطمع فى الوصول إلى الملك يرأسه أخ للنعمان يقال له الأسود . فلما فشل فى تحقيق غرضه ، أخذ يكيد لعدى بن زيد ،

(١) جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ٢٠٩ .
(٢) Guidi , L'Arabia Ant'eislamique P 25

ويسعى به سراً لدى النعمان ، حتى حقد عليه النعمان وبعث يستأذن كسرى فى أن يسمح لعدى بزيارته فى الحيرة ، فأجاب كسرى طلبه . ولما قدم عدى إلى الحيرة ، أمر النعمان بزجه فى السجن فأخذ عدى ينظم القصيدة تلو القصيدة فى استعطاف النعمان ، لكن النعمان رغم ذلك خشى أن ينقلب عليه إذا ماأطلق سراحه ، فأبقاه فى سجنه ، وبعث إليه جماعة قتلوه خنقاً ، ومالبث أن ندم على قتله وأخذ يقرب إليه ابنه زيدا ويرعاه تكفيراً عن إساءته لأبيه ، فطلب منه زيد أن يرجو كسرى أبرويز بن هرمز ليعينه مكان أبيه ، فلبى رغبته ، وحاز سعيه قبولا لدى كسرى ، وبذلك أصبح لزيد المكانة التى كانت لأبيه فى بلاط ملك الفرس(١) .

كان زيد بن عدى يظهر إعجابه بالنعمان ويضمر له السوء ، فأخذ يترقب الفرص للأخذ بثأر أبيه . فلما احتاج كسرى أبرويز بن هرمز أن يخطب نساء لرجال أسرته ، أشار عليه زيد أن يطلب من النعمان بعض بنات عمه ، وأثنى على جمالهن . فأنفذ كسرى ابن عدى إلى النعمان ليبلغه طلبه ، فاستاء النعمان من هذا الطلب وقال لزيد : « أما فى مها السواد وعين فارس مايبلغ به كسرى حاجته »(٢) وكتب لكسرى : « إن الذى طلب الملك ليس عندى »(٣) فغضب كسرى على النعمان وبعث يستقدمه إليه ، فحمل النعمان سلاحه وماااستطاع حمله ، ثم لحق بطيء ـ وكان متزوجاً منهم ـ فأبت طيء معاونته خوفاً من كسرى ، فأخذ يطوف على قبائل العرب حتى نزل على بنى شيبان بذى قار(٤) سراً ، فلقى هانىء بن مسعود الشيبانى ، فاستجار به ، فأجاره ، ثم أودعه النعمان أهله وماله .وتوجه إلى كسرى ، فلما وصل إلى

(١) غنيمة . الحيرة ص٧٠٧ـ ٢٠٨ .
(٢) أى أما فى بقر السواد وفارس مايكفيه حتى يطلب ماعندنا .
(٣) ابن الأثير :ح ١ ص١٧٣ .
(٤) ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة .

حاضرة ملكه ، بعث إليه من قيده وحبسه ، وظل فى السجن حتى توفى سنة ٦١٣م .

ولىَّ كسرىٰ على الحيرة بعد وفاة النعمان إياس بن قبيصة الطائى ـ وكان من أشراف طيىء وفصحائها المشهورين ، وله منزلة عظيمة عند ملك الفرس لبلائه الحسن فى الدفاع عنه ، ولما أداه له من خدمات جليلة ـ ومع ثقة كسرى أبرويز به ـ فإنه لم يوله وحده على الحيرة ، بل جعل إلى جانبه حاكما فارسياً[١] .

طلب كسرى أبرويز من إياس بن قبيصة بعد أن ولاه على الحيرة أن يرسل إليه ماخلفه النعمان من الدروع وغيرها فبعث إياس إلى هانىء بن مسعود الشيبانى يطلب منه ودائع النعمان ، فأبى أن يجيبه الى طلبه ، فأرسل كسرى إلى بنى شيبان أن يسلموا ماتركه النعمان عندهم أو يعلن عليهم الحرب ؛ فاختاروا الحرب ، ودارت المعركة بين إياس بن قبيصة ومعه جند الفرس ومن انضم اليهم من قبيلتى تغلب وإياد ، وبين بكر بن وائل يتقدمها هانىء بن مسعود الشيبانى فحلت الهزيمة بالفرس ، وتعرف هذه الواقعة بيوم ذى قار[٢]

كان لانتصار العرب على الفرس فى يوم ذى قار ، رنة فرح وسرور فى بلاد العرب . ولاغرو فإن العرب أنفسهم اعتبروه بداية عهد جديد[٣] . وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما سمع بهذا النصر الذى أحرزته قبيلة بكر ، قال : « هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبى انتصروا[٤] » . ومما لاريب فيه أن انحدار الفرس فى هذه المعركة كان له

(١) غنيمة : الحيرة ص ٢١٥ ـ ٢١٦ ، فيليب حتى : تاريخ العرب ج١ ص١٠٣ .
(٢) راجع ماورد عن هذا اليوم فى ابن الأثير ج١ ص١٧١ ـ ١٧٤ وكتاب أيام العرب ص٦ - ٣٩ .
(٣) Nicholson , Literary History of the Arabs P — 70
(٤) ابن الأثير : ج ١ ص ١٧١ .

أثره فيما بعد ، فقد مهد السبيل للمجاهدين من العرب فى العهد الإسلامى ، فأحرزوا انتصارات كبرى على الساسانيين(١) .

ولىَ إمارة الحيرة بعد إياس بن قبيصة رجل فارسى ، يقال له أذاذبه ، وهذا يدلنا على أن كسرى فارس رأى بعد واقعة ذى قار أن يوطد سلطانه فى الحيرة عن طريق تعيين عمال من الفرس عليها . غير أن المناذرة مالبثوا أن استعادوا سلطانهم على الحيرة فولى إمارتها المنذر بن النعمان أبى قابوس سنة ٦٢٨م بعد أن أقصيت أسرته عن الملك . ومن الأسباب الرئيسية التى مهدت له سبيل اعادة سلطان آبائه ، تلك الفتن والثورات التى قامت فى دولة فارس ، وكان لها أثرها البعيد فى اضعاف كيان الفرس وتقويض أركان سيطرتهم . وقد طل المنذر والياً على الحيرة حتى فتحها خالد بن الوليد(٢) .

مانيا مملكة الغساسنة :

لما هاجرت الأزد من بلاد اليمن بسبب ماحل بسد مأرب من الخراب واستقرت إحدى قبائلها بجوار ماء اسمه غسان بالشام فنسبت إليه . وكانت بادنة الشام أرضاً عربية من أقدم الأزمنة ، فوفد إليها بعض القبائل من البادية ، كما هاجر اليه الضجاعمة وهم من ولد سليخ بن عمرو بن حلوان ابن قضاعة ، ونزلوا بالبلقاء وظلوا بها الى أن قدم عليهم الغساسنة ، فطالبهم لضجاعمة بالإتاوة .

كان الروم اذ ذاك لايهتمون بهجرة هذه القبائل ، إنما يوجهون عنايتهم إلى حراسة حدودهم الشرقية ، فعهدوا إليها بحراسة تلك الحدود ، وأقاموا سلسلة من الحصون والقلاع تأميناً للشام من غارات الفرس .

(١)غنيمة : الحيرة ص٢١٨ . Guide L'Arable Ant'eislamique

(٢) غنيمة : الحيرة ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ .

ظل الغسانيون يؤدون الأتاوة للضجاعمة على كره منهم حتى تغلبوا عليهم وانفردوا بالسلطان ، وأنشأوا لأنفسهم دولة فيها هو معروف بالبلقاء وحوران ، عرفت بدولة الغساسنة واتخذوا بُصرى عاصمة لهم[١] .

لما احتاج الروم إلى معونة الغساسنة ضد الفرس ، حالفوهم على أن يمدهم الروم بأربعين ألفاً إذا هاجمهم العرب ، وأن يمدوا الروم بعشرين ألفاً إذا حاربهم الفرس .

* * *

اختلف المؤرخون اختلافاً كبيراً فى عدد ملوك هذه الدولة ، وفى مدة حكمها . وأن ماذكره بعضهم لايخلو من الاختلاط والاضطراب لتناقضه ونقصه ومخالفته فى بعض الأحيان لحوادث الدول المعاصرة . فيقول حمزة الأصفهانى[٢] : إن ملوك غسان كانوا اثنين وثلاثين ملكا ، حكموا نحو ستمائة سنة ، وذكر أبوالفدا[٣] : تسعة وعشرين ملكا تولوا الملك فى دولة لغساسنة ، بينما ابن قتيبة[٤] والمسعودى[٥] لايذكران إلا أحد عشر ملكا . ويرجع السبب فى هذا الاختلاف إلى أن حياة الغساسنة كانت غير مستقرة ، كما أنهم اتخذوا أكثر من عاصمة ، ثم إن الروم كانوا ينظرون اليهم على انهم حراس لحدودهم الشرقية فيدفعون لهم اجراً معيناً على حراسة هده الحدود .

وقد حاول المستشرق الألمانى نولدكا أن يوضح الغموض الذى أحاط بتاريخ دولة الغساسنة ، فنقد الأخبار التى وردت عنها فى المراجع العربية

(١) جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ص ١٨٤ .
(٢) سنى ملوك الأرض والأنبياء ص ١١٥ - ١٢٢ .
(٣) المختصر فى أخبار البشر : ح ١ ص٧٢ - ٧٣ .
(٤) المعارف : ص ٣١٤ - ٣١٦
(٥) مروج الذهب ومادن الجوهر : ح ١ ص ٢٠ - ٣٢ .

واليونانية والسريانية ، فظهر له أن ملوكها الذين عرفهم الروم لايتجاور عددهم عشرة ملوك ، حكم أولهم فى اخر القرن الخامس للميلاد ، واخرهم عند ظهور الإسلام ، وبذلك لاتتجاوز مدة حكمهم قرناً وبعض القرن(١)

رأى الغساسنة تحت تأثير مابينهم وبين البيزنطيين من علاقات أن يعتنقوا النصرانية ، غير أنهم لم يتبعوا المذهب الملكانى ـ مذهب الدولة الرومانية الشرقية ـ بل اعتنقوا المسيحية على المذهب المنوفستى السائد فى البلاد السورية(٢) .

كان من أعظم أمراء الغساسنة الحارث بن جبلة (٥٢٩ ـ ٥٦٩م) . وقد بسط الامبراطور Justinian سلطته على جميع القبائل العربية فى بلاد الشام ، كما أنعم عليه بلقب Patricus and phlarch وهو أعلى رتبه بعد لقب الامبراطور نفسه(٣)

قضى الحارث أكثر أيام ملكه يقاتل فى سبيل بيزنطة ، ويدأب على خدمه مصالحها ، فاشترك معها فى قمع ثورة السامريين ، كما حارب المندر بن ماء السماء أمير الحيرة لادعائه ملكية الطريق الممتد جنوبى تدمر(٤) ، وانتصر كسرى لأمير الحيرة وأوعز إليه سراً أن يتوغل فى غزو سورية فأجابه إلى طلبه ، وقامت الحرب بسبب ذلك بين الحيرة ودولة الغساسنة . ثم تقدم كسرى وحليفه المندر فى أراضى سورية وآسيا الصغرى وأوشكا على فتح القسطنطينية ولما علم بذلك الامبراطور البيزنطى ، استنجد بالحارث بن جبلة وطلب منه أن يعاون قائده بليزاريوس فى صد الفرس والمناذرة فسار زاريوس على رأس الجيش

(١) جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ص ١٨٦ .
(٢) فيليب حتى ج ١ ص ٠٣
(٣) Hitti , History of the Arabs P . 76
(٤) تقع تدمر فى واحة بأواسط بادية الشام على طريق التجارة الممتد بين جنوب جزيرة العرب وشمالها .

الرومانى قاصداً بلاد الفرس ، وخلف الحارث وراءه فلما وصل إلى كسرى نبأ تقدم بليزاريوس فى بلاده ، أسرع فى الرجوع إليها واضطرت حملة بليزاريوس الى العودة من حيث أتت[١] .

لم يمض على هذه الغزوة زمن طويل حتى عاد الأميران العربيان الحارث بن جبلة والمنذر بن ماء السماء الى القتال ، فاشتبكا فى حرب طال أمدها وانتهت بواقعة أدت إلى دخول قنسرين[٢] فى حوزة الحارث بن جبلة بعد قتل المنذر بن ماء السماء ، وتعرف هذه الواقعة بيوم عين أباغ[٣] .

ذهب الحارث بن جبلة فى أواخر عهده سنة ٥٦٣م الى القسطنطينية لزيارة الامبراطور جستنيان ، وللاتفاق مع حكومته على أن يخلفه فى الحكم ابنه المنذر ، فاحتفل امبراطور الروم باستقباله . وكانت هذه هى المرة الأولى التى زار فيها الحارث عاصمة البيزنطيين ، فدهش مما رآه فيها من مظاهر العظمة والأبهة ، كما أعجبت حاشية قيصر الروم بمرأى ذلك الشيخ العربى ، غير أن الحارث لم يطب له المقام بها لبعدها عما ألفه من طلاقة الباديه وبساطة المعيشه فيها ومن ثم عاد مسرعاً إلى بلاد الشام[٤] .

استطاع الحارث بن جبلة أثناء إقامته فى القسطنطينية أن يظفر بتعيين يعقوب البردعى أسقفاً على الكنيسة السورية . وكان يعقوب هذا متحمساً فى نشر مذهبه حتى ان الكنيسة المنوفستية السورية قد عرفت بعده باسم اليعقوبية[٥] .

---

(١) جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ص ١٩٢ .
(٢) تقع بالقرب من حمص
(٣) واد وراء الأنبار على طريق الفرات الى الشام .
(٤) جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ص ١٩٣ .
(٥) فيليب حتى : ج ١ ص ١٠٤

لما توفى الحارث خلفه ابنه المنذر ، ولم يكد يستتب له الأمر حتى اشتبك فى حرب مع قابوس بن المنذر ملك الحيرة لإغارته على أراضى الغساسنه فأوقع به الهزيمة

وقد حذا المنذر حذو أبيه فى مناصرة المذهب المنوفستى فأدى ذلك إلى الإقلال من عطف بيزنطة عليه - وكانت تؤيد المذهب الملكانى - وقد أثارت تلك السياسة الغساسنة ، ثم هدد عرب الحيرة تخوم الروم ، مما اضطرهم إلى استرضاء الأمير الغسانى ، فدعاه الامبراطور البيزنطى لزيارة القسطنطينية ، فرحب المنذر بهذه الدعوة سنة ٥١٠م واستقبله الإمبراطور Tiberius . II استقبالا حافلا ، وأنعم عليه بالتاج ، ولذلك سماه بعض مؤرخى العرب « المنذر ملك العرب »

وعلى الرغم من أن المنذر بن الحارث قد غزا فى سنة ٥٨٠م عرب الحيرة وانتصر عليهم ، فان عمله هذا لم يمح ما أحاط به من شبهات الخيانة وعدم ولائه للروم ، فتنكر الأمبراطور له ودبر مؤامرة للتخلص منه ، فألقى القبض عليه وأرسل مخفوراً إلى القسطنطينية ، ثم نفى منها إلى صقلية حيث توفى سنه ٥٨٢[١].

لم تكتف الحكومة البيزنطية بالقبض على المنذر ونفيه ، بل اتبعت هذا العمل بقطع الإتاوة التى كانت تعطيها سنوياً لدولة الغساسنة ، فكان ذلك سببا لخروج أبناء المنذر الأربعة على البيزنطيين بزعامة أخيهم الأكبر النعمان ابن المنذر الغسانى ، الذى ساءت علاقته بالروم بعد أن شن الغارة على أراضيهم ، فقبضوا عليه وأخذوه أسيراً إلى القسطنطينية[٢] .

سادت الفوضى بلاد الغساسنة بعد أسر النعمان وتفككت عرى الوحدة

(١) فيليب حتى : تاريخ العرب ج ١ ص ١٠٤- ١٠٥ .
(٢) حتى : تاريخ العرب ج ١ ص ١٠٥ .

فى بادية الشام . فصارت كل قبيلة تختار رئيسها ، وقد انتفع الفرس بتلك الفوضى السائدة فى بلاد الشام ، فأغار كسرى أبرويز عليها واستولى على بيت المقدس ودمشق (٦١٣ـ ٦١٤م) وبذلك ضعف أمر الغساسنة .

على أن الروم مالبثوا أن نجحوا فى استرداد بلاد الشام من الفرس سنة ٦٢٠ م وظهر من الغسانيين إذ ذاك جبلة بن الأيهم ، ويعد آخر أمراء البيت الغسانى . وقد اشترك مع الروم فى واقعة اليرموك[١] التى كان النصر فيها حليف المسلمين من العرب .

٣ ـ مدن الحجاز

لم يكن هناك ببلاد الحجاز قبل الإسلام مايسمى بالدولة العربية ، وإنما قام بها مدن لكل منها نظام سياسى ، ومن أشهرها مكة ، ويثرب ، والطائف .

مكة .

تعد مكة من أهم حواضر الحجاز وهى عبارة عن قرية فى واد ضيق غير ذى زرع تحيط به الجبال من جميع الجهات ، ويروى أنها سميت بذلك لقلة مائها أخذاً من قولهم أمتك الفصيل ضرع أمه (أى امتصه) ، وقيل لأنها تمسك الذنوب بمعنى أنها تذهب بها ويقال لها أيضاً « بكة » بإبدال الميم باء موحدة ، وقد ورد ذكرها بهذه الصورة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى ، (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً) ، وقيل مكة بالميم معناه الحرم كله ، وبكة المسجد خاصة[٢] .

***

(١) فيليب حتى : تاريخ العرب ج ١ ص ١٠٥

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٨ ص ١٣٤ ـ ١٣٥ ، الألوسى : بلوغ الأرب فى احوال العرب ج ١ ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ .

كان العمالقة أول من سكن مكة ، ثم خلفتهم قبيلة جرهم اليمنية ، وفى عهدها قدم إلى مكة سيدنا إبراهيم مع زوجته هاجر وابنه اسماعيل ، وأصبح لها فيها بعد السيادة على البيت الحرام ، غير أن ولاتها لم يراعوا حرمة هذا البيت فكثر فى أيامهم البغى والفساد ، واغتصب كثير منهم مال الكعبة الذى كان يهدى إليها . ويقال إن ماء زمزم نضب فى عهدهم ، كما أن البئر نفسها زالت معالمها .

وبينما كانت جرهم مقيمة بمكة تفرق عرب اليمن بسبب سيل العرم . فهاجر ثعلبة بن عمرو بن عامر إلى مكة هو وقومه ، فرفضت جرهم أن تسمح له بالإقامة فى هذه المدينة واشتبكت معه فى قتال دام ثلاثة أيام انتهى الأمر فيه بهزيمتها .

ظل ثعلبة بن عمرو مقيما بمكة حتى أصابته الحمى ، فرحل إلى الشام وولى أمر مكة وحجابة الكعبة ابن أخيه ربيعة بن حارثة بن عمرو وهو لحى ، وعرف قومه بخزاعة . وقد انحاز إليهم بنو إسماعيل بن إبراهيم ـ وكانوا قد اعتزلوا الحرب التى دارت بين جرهم وثعلبة[1] .

آلت ولاية مكة وحجابة الكعبة إلى عمرو بن لحى بعد وفاة أبيه وعلت مكانته بين العرب إلى حد أن قوله أصبح ديناً لايخالف . وكان عمرو بن لحى أول من أطعم الحجاج بمكة لحوم الإبل على الثريد ، كما قام بنصب الأصنام حول الكعبة وأحل عبادة الأوثان محل الحنيفية دين ابراهيم عليه السلام[2] .

ظلت خزاعة تلى البيت الحرام بمكة نحواً من ثلاثمائة سنة وكانت قريش إذ ذاك متفرقة فى بنى كنانة حتى تزعمها قصى بن كلاب ووحد بين بطونها .

(١) الأزرقى : أخبار مكة ج ١ ص ٤٢ ـ ٥١ .
(٢) الأزرقى : أخبار مكة ج ١ ص ٥٤ ، القلقشندى : صبح الأغشى ج ٤ ص ٢٦٢ ، ٢٦٥ .

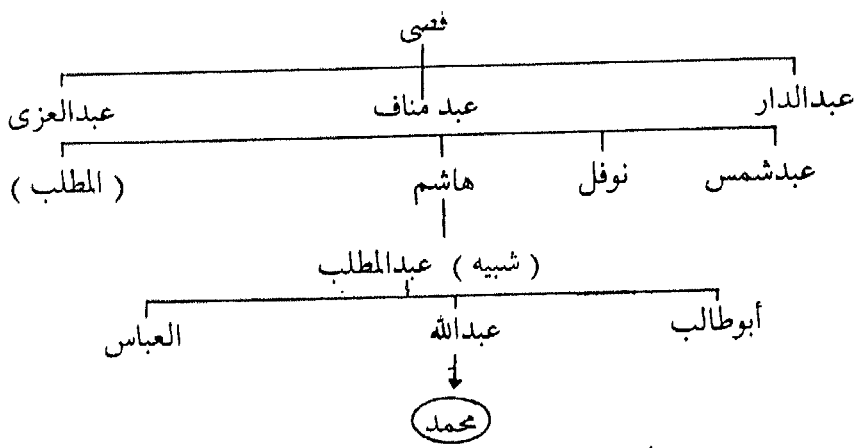
ويذكر بعض المؤرخين عن طموح قصى إلى نصرة قريش وحرصه على تقلدها الرئاسة بمكة أن أباه كلابا توفى وتركه صغيراً مع أمه فاطمة بنت عمرو التى تزوجت ربيعة بن حرام - وهو من قضاعة ، ثم رحلت مع زوجها إلى أرض قضاعة ببلاد الشام وأخذت بصحبتها ابنها قصى فلما بلغ قصى أشده تحدث إليه رجل من قضاعة بقوله : « ألا تلحق بنسبك وقومك فإنك لست منا » فاستاء قصى من هذا الرجل وأخبر أمه بذلك الحديث ، فقالت له : « والله أنت يابنى خير منه وأكرم ، أنت ابن كلاب بن مرة وقومك عند البيت الحرام وماحوله » فصمم قصى على الخروج إلى قومه واللحاق بهم وكره الغربة فى أرض قضاعه ، ومالبث أن سار إلى مكة ، وأقام بها وتزوج ابنة زعيم خزاعة حليل بن حبشه بن سلول الذى كان يلى إذ ذاك أمر الكعبة ومكة ، وظل قصى مقيما معه حى أنجب أولاده عبدالدار وعبد مناف وعبدالعزى

كان حليل يثق بابنته زوجة قصى ، فإذا ما أصابه المرض ، سلمها مفتاح الكعبة لتقوم بشئونها بدلا منه ، وكانت بدورها تعطى المفتاح لزوجها حين يتعذر عليها الخروج من بيتها بسبب المرض .

ولما شعر زعيم خزاعة بدنو أجله ، دعا قصياً وعهد إليه بولاية البيت الحرام . كما سلم إليه مفتاح الكعبة ، غير أن قبيلة خزاعة مالبثت بعد وفاه زعيمها أن حالت بين قصى وبين الإشراف على شئون البيت الحرام ، وأخذت مفتاح الكعبة من زوجته ، فبعث قصى إلى قريش يطلب منها مؤازرته ضد خزاعة ، فلبى القرشيون دعوته ، كما سارع القضاعيون الى نجدته حين أرسل إليهم يدعوهم لنصرته ويخبرهم بما قامت به خزاعة من الحيلولة بينه وبين ولاية البيت الحرام . وخرج قصى بمن انضم إليه من قريش وقضاعة لمحاربة خزاعة بمنى ؛ فدار بين الفريقين قتال شديد ، ثم تداعوا إلى الصلح بعد أن تداخلت قبائل العرب بينهم ، واتفقوا ، على أن يحكموا بينهم رجلا من العرب فيما

اختلفوا . فقضى بينهم ذلك الرجل بأن قصياً أولى بحجابة الكعبة وأمر مكة من خزاعة ، وأن كل دم أصابه قصى من خزاعة وبنى بكر موضوع ، وأن ماأصابت خزاعة وبنوبكر من قريش وبنى كنانة وقضاعة ففيه الدية ، كما حكم لخزاعة بأن تظل فى مساكنها بمكة . وبذلك أصبح قصى ملكا على قومه وأهل بيته ، فكان أول من ظفر بالملك ولد كعب بن لؤى وساعد على رفع مكانة قريش بين العرب وازدياد نفوذها بمكة(١) .

قام قصى بتقسيم مكة إلى رباع ، وزعها بين قومه ، وأبقى لكل فريق منهم منازلهم التى استقروا بها . كما أنشأ دار الندوة ، وفيها كان يجتمع كبار القرشيين تحت رئاسته للتداول فى شئوبهم ، ولم يكن يدخلها من قريش إلا من بلغ الأربعين من عمره ، ثم تصدى لاطعام الحجاج وسقايتهم على اعتبار أنهم صيوف الله وزوار بيته ، وفرض على قريش خراجا سنوياً يؤدونه إليه لينفق منه على إطعام فقراء الحجاج .



(١) الأرزقى ، أخبار مكة ج١ ص٥٦ - ٦٠

كان من أشهر أبناء قصي : عبدالدار وعبدمناف وعبدالعزى . وقد ارتفع شأن عبدمناف فى حياة أبيه ؛ وبلغ من الشرف درجة عظيمة ، فرأى قصى قبيل وفاته أن يخلفه ابنه الأكبر عبدالدار فى رئاسة الندوة والحجابة واللواء والسقاية والرفادة حتى يصبح موضع تقدير قومه . فلما توفى قصى قام ابنه عبدالدار بهذه الأمور ، وتولاها من بعده أبناؤه ، فنازعهم فيها أبناء عبدمناف بن قصى : عبدشمس وهاشم والمطلب ونوفل الذين رأوا فى انفسهم من النباهة والفضل ماجعلهم يشعرون بأنهم أحق من بنى عبدالدار بولاية الأمور فى مكة وأجمعوا على أخذ ما بأيديهم من الوظائف .

وقد أدى ذلك إلى تفرق القرشيين ؛ فمال فريق منهم الى بنى عبد مناف بن قصى ، كما رأى فريق آخر ألا ينزع من بنى عبدالدار بن قصى ما أسند قصى إليهم . وعقد كل فريق منهم حلفا مؤكدا على ألا يتخاذلوا ؛ فأحضر بنو عبدمناف ومن تابعهم من قريش وهم : بنوالحارث بن فهر ، وأسد بن عبدالعزى ، وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة جفنة مملوءة طيباً ، ثم غمسوا أيديهم فيها وتعهدوا هم وحلفاؤهم ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم فسموا المطيبين .

أما بنو عبدالدار ، فقد أخرجوا ومن انضم إليهم من قريش وهم مخزوم ابن يقظة وجمح وسهم وعدى بن كعب ، جفنة مملوءة دماً وفعلوا مافعله بنو عبدمناف عند الكعبة ، وتعهدوا على ألا يتخاذلوا ولايسلم بعضهم بعضاً ، وسموا الأحلاف

على أن المطيبين والأحلاف مالبثوا أن تداعوا إلى الصلح واتفقوا على أن يعطوا بنى عبدمناف بن قصى السقاية والرفادة وأن تكون الحجابة واللواء ورئاسة الندوة لبنى عبدالدار بن قصى(١)

(١) ابن هشام : سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ج ١ ص ١٤٢ - ١٤٤ ، ابن الأثير ج ١ ص ١٦٠ .

ورعت الوظائف التى أخذها بنو عبدمناف بن قصى بين هاشم وأخيه عبدشمس ، فولى هاشم السقاية والرفادة ، أما القيادة فوليها عبدشمس وأبناؤه من بعده[١] . وكان هاشم بن عبدمناف يطعم الحجاج فى كل موسم بما يجمعه من قريش من الأموال . ولما أصاب الناس فى مكة جدب شديد ، خرج هاشم إلى الشام واشترى بما اجتمع من ماله دقيقاً وأتى به إلى مكة وذبح الذبائح وصار يهشم الخبز لقومه ؛ فسمى هاشماً . وكان اسمه قبل ذلك عمراً .

حدثت منافسة بين هاشم بن عبد مناف ، وبين ابن أخيه أمية بن عبدشمس بن عبدمناف ، سببها أن هاشماً كانت إليه الرفادة مع السقاية ، وعلت مكانته بين قريش لعنايته باطعام الحجاج وحمل الماء إليهم . وقد ساعده على ذلك ثروته ، فحسده أمية بن عبدشمس ـ وكان ذا مال ـ ورأى أن يطعم القرشيين كما يفعل هاشم ، لكنه عجز عن أداء هذا العمل ، فشمت به بعض القرشيين وعابوه ، فغضب أمية وازداد حقده على هاشم ودعاه إلى الاحتكام إلى رجل من العرب ليحكم أيهما أعز نفراً وأكثر فضلا ، كما أعلن أن من تكون عليه الغلبة يخرج خمسين ناقة سود الحدق لتنحر ببطن مكة ، وأن يجلو عن مكة عشر سنين ، فحكم بينهما الكاهن الخزاعى بأن هاشماً سبق أمية إلى المآثر ، وبذلك الحكم احتفظ هاشم بما ظفر به من شرف وفضل وأخذ الإبل من أمية ، فنحرها وأطعم لحمها من حضر إليه من القرشيين ، وخرج أمية إلى لشام وظل بها عشر سنين . وقد أدى ذلك الأمر إلى قيام أول عداوة بين بنى هاشم وبنى أمية .

* * *

لما توفى هاشم خلفه أخوه المطلب فى إقامة الرفادة والسقاية ، وكان ذا

---

(١) الأرزقى : اخبار مكة ج١ ص٦٢ ـ ٦٣ .

شرف وفضل فى قومه ، وكانت قريش تسميه الفيض لسماحته وفيضه . وكان المطلب متآلفاً مع أخيه هاشم . وقد حافظ أبناؤهما على ذلك التآلف حتى قال النبى ﷺ : « لم يفترق هاشم والمطلب فى جاهلية ولا إسلام » .

حلف المطلب فى السقاية والرفادة ابن أخيه عبدالمطلب بن هاشم ، فعُنى عناية فائقة فى إقامتها مما كان سبباً فى ازدياد محبة العرب له وعلو شأنه بينهم . فظل يسقى الحجاج ويطعمهم حتى توفى ، فقام بأمر السقاية والرفادة من بعده العباس بن عبدالمطلب . ولم يزل يتولاها حتى دخل رسول الله عليه وسلم مكة سنة ٨ هـ فأبقاهما فى يده .

كذلك وزعت بين بنى عبدالدار ماخصهم من المناصب ؛ فقام عثمان ابن عبدالدار بالحجابة ، وتولى أخوه عبدمناف رئاسة دار الندوة . أما اللواء ، فكان فى بنى عبدالدار كلهم يليه منهم ذوو السن والشرف .

لم يزل بنو عثمان بن عبدالدار يلون الحجابة حتى كان فتح مكة ، فتولاها رسول الله من أيديهم وفتح الكعبة ودخلها ، وبعد أن خرج منها قال له العباس بن عبدالمطلب : بأبى أنت وأمى يارسول الله أعطنا الحجابة مع السقاية ، فأنزل الله على نبيه : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها[١]) ، فاستدعى الرسول عثمان بن طلحة من بنى عبدالدار ورد مفتاح الكعبة إليه ، وقال : « خذوها يابنى أبى طلحة بأمانة الله سبحانه ، واعملوا فيها بالمعروف خالدة تالدة لاينزعها من أيديكم إلا ظالم » ، فظلت حجابة الكعبة فى بيته إلى اليوم[٢] .

* * *

(١) سورة النساء اية ٥٧

(٢) الأزرقى : أخبار مكة ج ١ ص١ - ٦٦ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٦٤ -

كان لقريش مركز كبير بين القبائل العربية من جراء سيادتهم على الكعبة كما علت مكانتها بين العرب لعقدها حلف الفضول ، ذلك أن بعض قبائل قريش اجتمعت فى دار عبدالله بن جدعان التيمى وتعاهدوا على أن ينصروا كل مظلوم بمكة سواء أكان من أهلها أو من سائر الناس ، وأن يكونوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، وسمى هذا الحلف حلف الفضول لأنهم تحالفوا على رد الفضول إلى كل مقيم بمكة . وقد دخل فى الحلف بنو هاشم والمطلب وبنو أسد بن عبدالعزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة ، ولم يشترك فيه بنو عبدشمس وبنو نوفل بن عبد مناف وشهده رسول الله صلى الله عليه وسلم[(١)] .

كذلك تمتعت قريش بمركز ممتاز بين العرب لاتساع متاجرها ، فكان تجارها يخرجون من مكة بتجارتهم فى قوافل عظيمة . فيذكر الطبرى أن قافلة من هذه القوافل بلغت ألفاً وخمسمائة بعير . وكانوا يذهبون بتجارتهم فى الشتاء إلى اليمن وفى الصيف إلى الشام ، وقد امتازت رحلاتهم التجارية بتمتعها بالأمن لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته ، فلا يتعرض لهم الناس بسوء ، على حين كان غيرهم من العرب مهددا بالاغارة عليهم .

وقد جنى القرشيون من تجارتهم ثروات كبيرة وأصبحوا فى سعة من العيش حتى امتن الله عليهم[(٢)] بذلك فى قوله (لايلاف[(٣)] قريش . إيلافهم . رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت . الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)[(٤)] .

ويقول الله تعالى : (أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء

---

(١) ابن هشام : ح ١ ص ١٤٤ - ١٤٦ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ح ٤ ص ٢١٤ .
(٣) الايلاف : الأمان .
(٤) سورة قريش آية ١ .

رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لايعلمون)[١].

كذلك أدى اشتغال القرشيين بالتجارة إلى ارتقاء معالمهم ، فاختلطوا بشعوب مختلفة وقفوا على كثير من مدنيتها وأحوالها الاجتماعية ، كما تعاملوا مع أمم أجنبية تتكلم بلغات تختلف عن لغتهم مما اضطرهم إلى تعملها[٢]. وقد أتاح كل ذلك الفرصة أمام كثير من رجالهم لإظهار مواهبهم فى الحروب والسياسة بعد ظهور الإسلام .

يثرب :

كانت يثرب من بين مدن الحجاز المتحضرة . وقد ورد ذكرها بهذه التسمية فى القرآن الكريم فى قوله تعالى تعالى فى سورة الأحزاب آية ١٣ : (وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لامقام لكم فارجعوا) . وهى تقع إلى الشمال من مكة فى مستو من الأرض ، ويحدها من الشمال جبل أحد ، وتمتاز معظم أراضيها بخصوبة التربة[٣]. وكان لذلك أثره فى انتشار الزراعة بها .

كان العمالقة أول من سكن يثرب ، ثم تغلب عليهم بعض القبائل اليهودية واستوطنوا بها . يحدثنا صاحب الأغانى[٤]عن هجرة اليهود إلى يثرب بقوله « كان ساكنو المدينة فى أول الدهر قبل بنى إسرائيل قوماً من الأمم الماضية يقال لهم العماليق ، وكانوا قد تفرقوا فى البلاد ، وكانوا أهل غزو وبغى شديد . . وكان ملك الحجاز يقال له الأرقم ينزل مابين تيماء وفدك . فبعث موسى بن عمران إلى العماليق جيشاً من بنى إسرائيل وأمرهم أن يقتلوهم جميعاً إذا ظهروا عليهم ولايستبقوا منهم أحداً ، فقدم هذا الجيش الحجاز وأظهرهم الله على العماليق » . فكان هذا بداية استيطان اليهود

(١) سورة القصص : آية ٥٧ .
(٢) احمد أمين . فجر الاسلام ص١٧ - ١٨ .
(٣) ياقوت معجم البلدان ج ٧ ص ٤٢٤ - ٤٢٥ والقلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ص٢٨٥ .
(٤) أبوالفرج الأصفهانى : ج ١٩ ص ٩٤ .

بيثرب[١].

على أن هجرة اليهود إلى يثرب لم تظهر بشكل واضح إلا فى القرنين الأول والثانى الميلاديين على أثر الحروب التى شنها الرومان ضد اليهود بسوريا والتى انتهت بطردهم منها وتشتتهم فى أنحاء متفرقة ، فهاجر منهم بنوالنضير وبنوقريظة إلى شمال جزيرة العرب[٢] ، وأقاموا بيثرب .

اختلط اليهود بالعرب المقيمين بيثرب وتأثروا بنظمهم الاجتماعية ، فعاشوا معيشة قبلية . وبلغ من تأثرهم بالعرب أن استحالت أسماؤهم إلى أسماء عربية ونبغ من بينهم بعض الشعراء كالسموءل بن عادية

كان لليهود أثر بعيد المدى فى الحياة الاقتصادية بيثرب ، فقبضوا بأيديهم على الناحية المالية فيها وازدادت ثروتهم من وراء اشتغالهم بالتجارة وعنايتهم بمرافقها ، كما ركزوا اهتمامهم فى فلاحة الأرض فى ضيعاتهم الخاصة وبرعوا إلى جانب ذلك فى الفنون الميكانيكية وصناعة الذهب وصناعة الأسلحة والآلات الزراعية[٣]. وقد اشتهرت قبيلة بنى قينقاع اليهودية بصفة خاصة بالصياغة حتى أن أحد أسواق يثرب عرف باسمهم[٤].

ظل بنوالنضير وبنو قريظة مقيمين بيثرب حتى نزح إليهم من بلاد اليمن قبائل الأوس والخزرج الوثنية[٥] بسبب سيل العرم الذى خرب بلادهم ولم يزل هؤلاء العرب بها حتى هاجر إليها النبى ﷺ فآمنوا به ونصروه وسموا

(١) Matgolioth , The Relations between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam P . 59 -60

(٢) Margoliouth , The Ralations between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam P 60

(٣) Lammens , Le Berceau di L'islam . P 154

(٤) المقريزى امتاع الأسماع ج ١ ص ١٠٥ .

(٥) Margoliouth , The Relations between Arabs and Issraelites Prior to the Rise of Islam P — 60

الأنصار[١]

* * *

كانت العلاقة بين اليهود ، والأوس والخزرج حسنة أول الأمر فاشتركوا معهم فى قوافلهم التجارية ، كما اشتغلوا بالزراعة فى أرضهم . يقول السمهودى[٢]عن العلاقات بين اليهود والأوس والخزرج : « أقامت الأوس والخزرج بالمدنة ووجدوا الأموال والأطام[٣]والنخيل فى أيدى اليهود ، ووجدوا العدد والقوة معهم فمكثوا ، ماشاء الله ، ثم سألوهم أن يعقدوا بينهم جواراً وحلفاً ، يأمن به بعضهم من بعض ، ويمتنعون به ممن سواهم ، فتعاقدوا وتحالفوا وتعاملوا ، فلم يزالوا على ذلك طويلا ، وصار للأوس مال وعدد ، فلما رأت قريظة والنضير حالهم خافوا أن يغلبوهم على دورهم وأموالهم ، فتنمروا لهم حتى قطعوا الحلف الذى كان بينهم » . ولما استبدت القبائل اليهودية بيثرب بالأوس والخزرج ، استنجدوا بالغساسنة ، فقدموا لنجدتهم أنفة من تسلط اليهود على بنى عمهم فى يثرب[٤].

كان الأوس والخزرج على وفاق فى بداية عهدهم ، ثم وقعت بينهم حروب طويلة اشتركت فيها القبائل العربية ، وكان النصر فى أغلب الأحيان محالفاً للخزرج حتى اضطرت الأوس أن تسعى إلى محالفة قريش لتكون عوناً لها على الخزرج . لكن قريشاً كانت أحرص من هاتين القبيلتين فلم ترد الدخول فى حرب لاتعود عليها بفائدة ، لذلك نجد الأوس تعقد حلفاً مع بعض القبائل اليهودية بيثرب ، فحالفت بنى قريظة وبنى النضير .

---

(١) القلقشندى : قلائد الجمان فى التعريف بقبائل الزمان ، ورقة ٤٩ .
(٤) وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ج ١ ص ١٢٥
(٣) الأطام : جمع أطم وهى بيوت من حجارة .
(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٩٤ .

ولما بلغ الخزرج نبأ تحالف الأوس مع هاتين القبيلتين اليهوديتين أرادت أن تتأكد من أنهما لن يساعدا الأوس عليها ، فأرسلت إليهم تستوضح موقفهم ، فأخبرهم اليهود أنهم لايرغبون فى الحرب ، لكن الخزرج رغم ذلك قالت لليهود « أعطونا رهائن وإلا فلا نأمنكم » فأعطوهم اربعين غلاماً من بينهم ، ثم مالبثت أن خيرتهم بين الجلاء عن يثرب أو قتل الغلمان ، فآثروا الخروج من ديارهم ؛ غير أن كعب بن أسد القرظى حملهم على العدول عن عزمهم مضحياً بالرهائن فى سبيل بقائهم بيثرب ، فقتل الخزرج الغلمان . وكان لهذا الحادث أسوأ الأثر فى نفوس اليهود ، فجاهروا بحلفهم مع الأوس واشتركوا معهم فى محاربة الخزرج والتقى الفريقان سعاث[١] ، حيث وقعت بينهما حرب عرفت بحرب فجار يثرب أو فجار الأوس والخزرج لقتل الغلمان ، انتهى الأمر فيها بانتصار الأوس ، ثم تصالح الفريقان واتفقا على إقامة حكومة تعمل على استقرار الأمور فى يثرب ، وأ يكون عبدالله بن أبى[٢]بن سلول الخزرجى والياً عليهم . وبينما كانوا يتأهبون لذلك هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يثرب ، فخضع الجميع له وعدلوا عن تولية عبدالله بن أبىّ الذى اضطر إلى الدخول فى الإسلام بعد أن اعتنقه قومه ، وصار على رأس المنافقين فى المدينة وإليه يجتمعون[٣].

الطائف :

كانت الطائف تسمى وجًا نسبة إلى وجٍّ بن عبدالحى أحد العمالقة الذين سكنوها ، وتقع على بعد اثنى عشر فرسخاً شرقى مكة على مرتفع من الأرض ، لذلك أصبحت مصيفاً لأهل مكة ، وتمتاز بخصوبة تربتها حتى قيل إنها بقعة من الشام انتقلت إلى الحجاز ، كما اشتهرت ببساتينها وحدائقها

(١) من أعمال قريظه بيثرب .
(٢) أبى هو مالك بن الحرث بنعبيد ، واسم أم عبيد سلول .
(٣) السمهودى ، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ج ١ ص ١٥٢ - ١٥٥

الرائعة(١) التى كان يزرع بها كثير من الفواكه مما يشابه فواكه الشام ، وهى إلى جانب ذلك طيبة الهواء وبها مياه جارية(٢).

وقد زاد موقع الطائف الطبيعى من أهميتها كمركز تجارى ، فيمر بها طريق القوافل الممتد من جنوب بلاد العرب إلى شمالها ، ومن العراق إلى اليمن . وكان هناك صلات قوية بين أهالى الطائف ومكة . فالأثرياء من قريش كان لهم عقار فى الطائف ، كما أنهم كانوا يقرضون أهاليها مايحتاجون إليه من مال ، فيحدثنا الأزرقى(٣) أن العباس بن عبدالمطلب كان له كرم بالطائف ، وأنه كان يداين أهل البلد ويأخذ منهم الزبيب ويسقيه الحجاج فى موسم الحج ، وفضلا عن ذلك فإنه كان بين هاتين المدينتين علاقات تجارية .

استفاد أهالى الطائف من الزراعة والتجارة ، فزادت ثروتهم وصارت بلدهم تقرن بمكة ، فيقال المكتين والقريتين ، وهذه التسمية وردت فى قوله تعالى فى سورة الزخرف (آية ٣١) : (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) .

كانت قبيلة ثقيف بالطائف ؛ ويروى المؤرخون فى سبب إطلاق اسم ثقيف على هذه القبيلة . أن قسياً بن منبه بن بكر بن هوازن لما رحل من وادى القرى إلى وج التى عرفت باسم الطائف قابل زعيمها عامر العدوانى ، وطلب منه أن يزوجه إحدى بناته ، فزوجه إياها وأنجب منها أولاداً ثم توفيت ، فتزوج أختها ، واستقر مقامه بهذا البلد وغرس بأرضه بعض العيدان التى أخذها من عجوز يهودية كان قد أقام عندها بوادى القرى ، فلما أثمرت العيدان ، قال أهالى وج : قاتله الله كيف ثقف عامراً حتى بلغ منه

(١) Lammens , Le Bereeau de L'islam . P .93

(٢) القلقشندى صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٥٨ - ٢٥٩

(٣) أخبار مكة ج ١ ص ٦٥

مابلغ ، وكيف ثقف هذه العيدان حتى جاء منها ماجاء ، فسمى ثقيفاً من يومئذ[١] وتكاثر نسله وأصبحت قبيلته فى سعة من العيش مما جعل أنظار من حولهم من العرب تتجه إليهم ، لذلك رأت ثقيف أن تبنى سوراً يكون حصناً لهم وأطلقوا عليه الطائف لإطافته بهم ؛ ومن ثم عرفت هذه المدينة بالطائف[٢] .

كانت ثقيف تنقسم إلى طبقتين ، تمثل الأولى فى بنى مالك وتعرف الأخرى بالأحلاف ، فلما أثرى الأحلاف وكثرت خيلهم حموا[٣] لبنى مالك حمى من أرض بنى نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن ، فاستاء بنو نصر من ذلك وحاربوا الأحلاف ، وكان يتزعمم بنى نصر عفيف بن عوف بن عباد النصرى ثم خلفه اليربوعى . أما رئيس الأحلاف فهو مسعود بن معتب فلما قامت الحرب بين بنى نصر والأحلاف ، انتهز هذه الفرصة بنومالك - ورئيسهم جندب بن عوف - لضغائن كانت بينهم وبين الأحلاف ، فحالفوا بنى يربوع ضد الأحلاف . ولما علم الأحلاف بذلك اجتمعوا وقاتلوا بنى مالك وحلفاءهم من بنى نصر فى يوم الطائف . وانتهى الأمر فى هذه المعركة بانتصار الأحلاف وإخراج بنى مالك إلى واد وراء الطائف ، وقتل من بنى مالك وبنى يربوع عدد كبير ، ثم رأى بنو مالك إزاء القتال المستمر بينهم وبين الأحلاف أن يسعوا إلى محالفة بعض القبائل ، فحالفوا دوس وخثعم وغيرهما على الأحلاف ، كما خرج زعيم الأحلاف مسعود بن معتب إلى المدينة يبتغى الحلف من الأنصار

---

(١) البكرى : معجم مااستعجم ج ١ ص ٧٦ - ٧٧ ، ياقوت ، معجم البلدان ج ١ ص١٢ - ١٣ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان جـ ٦ ص ١٤

(٣) يقال حمى فلان الأرض يحميها أى جعل الناس لاتقترب اليها . والحمى ، موضع فيه كلأ يحمى من الناس ، وقد نهى رسول الله صلى الله وسلم أن يحمى على الناس حمى كما كانوا فى الجاهلية يفعلون (حاشية رقم ١ ، الإسلام السياسى ج ١ ص٢٧٣) .

على بنى مالك . فلما قدم على أحيحة بن الجلاح الأوسى، نصحه بمصالحة بنى مالك ، وروده بسلاح ومؤن كما أعطاه غلاما يجيد بناء الآطام بالمدينة ، فبنى لمسعود بن معتب أطماً . فكان أول أطم بنى بالطائف ، ثم تلاه بناء آطام أخرى فيها بعد واستقرت الأمور منذ ذلك الوقت بين بنى مالك والأحلاف ولم تقم بينهم حرب تستحق الذكر[1] .

٤ ـ الحياة الدينية عند العرب

شاعت الوثنية فى بلاد العرب قبل الإسلام ، وقد قامت هذه الوثنية على فكرة عبادة مظاهر الطبيعة كالأرض والسماء والنجوم والكواكب . ولما كان العرب يعتقدون بوقوعهم فى حياتهم تحت تأثيرها ، لذلك حرصوا على إرضائها اجتلاباً لخيرها . فاتخذوا لها أشكالا مختلفة من بيوت وأشجار وأحجار مصورة تمثل إنساناً أو حيواناً وأخرى غير مصورة . وصاروا ينظرون إليها على أنها رمز القوة الطبيعية ، ومن ثم أصبحت معبودات لهم . وكانوا يطوفون حولها ويتاجرون عندها ويعتبرون المكان الذى فيه المعبود حرماً ، يحرم الإتيان فيه بأشياء معينة .

وكان البدو يؤدون الطقوس الدينية لمعبوداتهم تحت تأثير التقاليد الموروثة فى قبائلهم ، دون أن يعرفوا حقيقتها ، كما أنهم كانوا قليلى الاهتمام بأمور دينهم وليس هناك مايدل على وجود شعور دينى عميق لديهم .

فقد قيل إن عمرو بن لحى الخزاعى لما ساد قومه بمكة وأصبحت له السيادة على الكعبة ، سار إلى مدينة البلقاء بالشام على أثر مرض أصابه ، فرأى أهلها يعبدون الأصنام : فقال لهم : ماهذه الأوثان التى أراكم تعبدون ؟ قالوا : هذه أصنام نعبدها ، نستنصرها فننصر ، ونستسقى بها فنسقى ، فقال ، : ألا تعطونى منها صنما فأسير به إلى أرض العرب عند بيت الله الذى تفد

(١) ابن الأثير : ج ١ ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤

إليه العرب ، فأعطوه صنما ؛ يقال له هُبل ، فقدم به إلى مكة فوضعه عند الكعبة(١) .

كان بعض القبائل يعبدون أصناما معنة ، عرفت بالأصنام لانفرادهم بعبادتها ، منها ود ، سواع ، يغوث ، يعوق ، نسر ، فاتخذت قبلة كلب وأحياء قضاعة ودا بدومة الجندل . وكان تمثالا لرجل بتقلد سيفا وبين يديه حربة . واتخذت همدان يعوق بقرية خيوان إلى الشمال من صنعاء ، أما نسر فكان لحمير ، وهو صنم مقام بصنعاء(٢) .

وكان يعبد هذه الأصنام الخمسة قوم نوح ، وقد ذكرها الله عز وجل فى كتابه العزيز بقوله . (قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلاخسارا . ومكروا مكرا كبارا وقالوا لاتذرن الهتكم ولاتذرن ودا ولاسواعا ولايغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا)(٣) .

أما الأصنام العامة فكان يعظمها كثير من القبائل : ومنها اللات والعزى ومناة . وقد ورد ذكرها فى القران فى سورة النجم (اية ١٩) : (أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . إذاً قسمة ضيزى) .

وكانت اللات صخرة مربعة بالطائف عليها بناء ولها حى وحرم يقصده العرب ويقدمون لها الذبائح . وكان حجابها بنى مغيث من ثقيف(٤) .

(١) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ج ١ ص ٢١١
(٢) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ج ١ ص ٢١٢
(٣) سورة نوح اية ٢١ .
(٤) الأبشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف ج ٢ ص ١٧ فيليب حتى : تاريخ العرب ج ١ ص ١٣٧

أما العزى ، فكانت عبارة عن شجرة بوادى نخلة إلى الشرق من مكة . وكانت من أعظم الأصنام عند القرشيين ، فكانوا يزورونها ويقدمون لها الذبائح . كما خصصوا لها موضعاً على مثال حرم الكعبة[١].

وكانت مناة عبارة عن حجر أسود ، أقيم له معبد فى قديد على الطريق بين مكة ويثرب . وقد عظمها العرب وشاعت عبادتها بصفة خاصة عند الأوس والخزرج وغسان وخزاعة[٢] ، ولم تزل على ذلك حتى خرج الرسول صلى الله عليه وسلم من المدينة لفتح مكة سنة ٨هـ ، فعهد إلى على بن أبى طالب بهدمها .

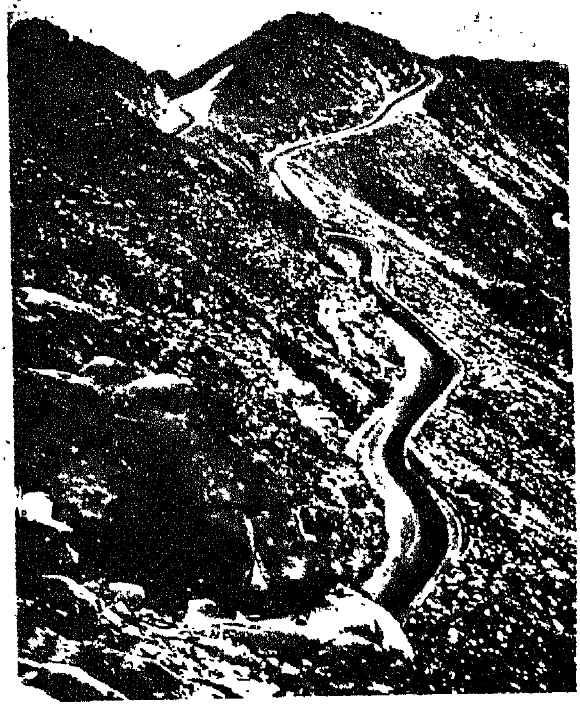
وقد اتخذت قريش « هُبل »[٣]وهو صنم على صورة إنسان ، كما اتخذوا أيضاً « أسافاً » و « نائلة » ، ووضعوا كل واحدة منهما على ركن من أركان بيت الله الحرام ؛ فكان الطائف إذ طاف بدأ بأساف فقبله وختم طوافه به . كذلك نصب القرشيون على جبل الصفا صنما يقال له « مجاور الريح » وعلى جبل المروة صنما يقال له « مطعم الطير » ؛ فكانت العرب إذا حجت البيت سألت قريشاً عن تلك الأصنام ، فيقولون لهم : نعبدها لتقربنا إلى الله زلفى[٤].

لم يتخذ العرب جميعهم الوثنية ديناً قبل الإسلام بل عبد بعضهم النجوم والكواكب . وقد ظهرت هذه الديانة فى حران وبلاد البحرين ، كما انتشرت فى البادية ، ويروى أنه كان بمكة رجل يسمى « أبوكبشة » عبد نجماً اسمه الشعرى ودعا قريشاً إلى عبادته . وقد ذاعت هذه العبادة بين بعض قبائل لخم وقريش وخزاعة . ولما بُعث الرسول صلى الله عليه وسلم ودعا قريشا

(١) الكلبى : كتاب الأصنام ص١٨ - ١٩ .
(٢) الكلبى كتاب الأصام ص١٣
(٣) هبل · كلمة أرامية معناها البخار والروح (فيلبت حتى : تاريخ العرب ج ١ ص ١٣٩)
(٤) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ج ١ ص ١٢٢ .



مكة المكرمة . مدينة تحيط بها الجبال . وقد امتد عمرانها فيما وراء ذلك



الطريق إلى الطائف يمتد ممهداً عبر الجبال

إلى عبادة الله أطلقوا عليه ابن أبى كبشة لأنه خالفهم فى عبادتهم كما خالفهم من قبل أبوكبشة فى عبادة الشعرى التى عناها الله بقوله « وأنه هورب الشعرى »(١) وخصها بالذكر لانتشار عبادتها بين القبائل العربية(٢)

كذلك عرفت الحيرة عبادة القمر(٣) وقد اشار الله تعالى إلى تلك العبادة بقوله : (ومن اياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم تعبدون)(٤).

كما شاع فى بلاد اليمن عبادة الشمس يدلنا على ذلك ماورد فى القران الكريم عن ملكة سبأ : (إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل فهم لايهتدون)(٥).

ومن الديانات التى اعتنقها بعض العرب ، الزرادشتية . وقد عرفت بذلك نسبة إلى زردشت Zoroaster ـ أحد فلاسفة الفرس ـ وهى ديانة رمزية تتخيل أن فى العالم : قوتين تتنازعان هما قوة الخير وقوة الشر(٦).

وقد اتخذ أتباع هذه الديانة النار رمزاً لعبادتهم كسائر الفرق المجوسية ، فكانوا يعبدون النار لاعلى أنها العنصر المحرق ، بل على أساس أنها مصدر النور الذى هو أساس الخير ، وصارت لهم أماكن توقد فيها النار باستمرار تعرف بمعابد النار .

وقد ظهرت فرق المجوسية ومن بينها الزرادشتية فى بلاد الفرس ، ومنها

---

(١) [illegible]
(٢) الألوسى : بلوغ الأرب فى احوال العرب ج ١ ص ٢٦٢
(٣) عبيمه الحيرة ص٣٠
(٤) سوره فصلت ايه ٣٧
(٥) سوره النمل أية ٢٣
(٦) الشهرستانى : الملل والنحل ج١ ص٧٧ ، احمد امين : فجر الإسلام ص١٢٢ ـ ١٢٤

انتقلت الى شرق بلاد العرب ، يقول ابن قتيبة[١] عند كلامه على أديان العرب في الجاهلية : « وكانت المجوسية في تميم منهم زرارة وحاجب بن زاررة . . وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الحيرة » .

كان هناك بجانب هذه الديانات في بلاد العرب : اليهودية ، والنصرانية ؛ فانتشرت اليهودية في خيبر ويثرب ووادى القرى وفدك وتيماء ، وهذه النواحي من أحسن واحات الجزء الغربي من جزيرة العرب ، وتسيطر على طرق مكة الممتدة إلى سوريا[٢] ، كما دخلت هذه الديانة بلاد اليمن على يد أسعد أبوكرب أحد ملوك حمير[٣]وذاعت بين كثير من أهلها . بل تعصب لها ذو نواس بعد أن آل إليه ملك حمير في أوائل القرن السادس الميلادي ، فلجأ إلى العنف والشدة في سبيل حمل المسيحيين من أهل نجران على اعتناقها[٤]. كذلك ظهرت اليهودية في بني كنانة وبني الحارث بن كعب ، ولعلها وصلت إليهم من مجاورة اليهود لهم في يثرب وخيبر[٥].

نشر اليهود في البلاد التي نزلوها بجزيرة العرب تعاليم التوراة من بعث وحساب كما كان لهم أثر كبير في اللغة العربية ؛ فأدخلوا عليها كلمات كثيرة لم يكن يعرفها العرب ، ومصطلحات دينية لم يكن لهم بها علم[٦].

كذلك دخلت المسيحية بلاد العرب ، فانتشرت بين الغساسنة ، كما دان بها معظم أهالي الحيرة[٧]. وقد أنشأ نصارى الحيرة البيع والأديرة ؛ ومن أشهرها : دير هند الكبرى - أم عمرو بن المنذر ، ودير هند

(١) كتاب المعارف .
(٢) Lammens . L'Arabie Occidententale avant l'Regire P 54 .
(٣) ابن خلدون : ج ١ ص٥٣ .
(٤) جرجي زيدان : العرب قبل الإسلام ص١٢٧ .
(٥) الألوسي : بلوغ الأرب في أحوال العرب ج٢ ص٢٦٤ .
(٦) أحمد أمين : فجر الإسلام ص٣٠ .
(٧) غنيمة : الحيرة ص٣٠ - ٣١ .

الصغرى[١]. وكان النعمان الثالث (الملقب بأبى قابوس بن المنذر الرابع) ملك الحيرة يخرج إلى هذين الديرين فى كل عيد .

يقول البكرى[٢] : « كان النعمان يركب فى كل عيد ومعه أهل بيته عليهم حلل الديباج المذهب ، وعلى رءوسهم أكاليل الذهب ، وفى أوساطهم الزنابير المفضضة وبين أيديهم أعلام فوقها صلبان ؛ فإذا قضوا صلواتهم انصرفوا إلى مستشرفة فى النجف وكنيسة دير هند الكبرى ودير هند الصغرى وغيرهما من الديارات » .

كان للمسيحية أيضا أتباع كثيرون فى جنوب جزيرة العرب ، فقد تسربت إليها مبادىء هذه الديانة على يد بعض الرسل السوريين ، فأوفد الإمبراطور Constantine سنة ٣٥٦م أول سفارة مسيحية إلى الجنوب برئاسة ثيوفلس . وكان من أهم البواعث التى حملت الامبراطور البيزنطى على إنفاذ هذه السفارة التنافس بين الفرس والروم على توطيد نفوذهم فى حنوب حزيرة العرب[٣]. وقد نجح ثيوفلس فى إنشاء ثلاث كنائس . منها كنيسة بظفار وأخرى بعدن[٤].

كانت نجران أهم موطن للمسيحية فى جنوب بلاد العرب ، فقد نقل إليها هذه الديانة على المذهب المنوفستى رجل ورع من سوريا اسمه فيميون حوالى سنة ٥٠٠م[٥]، كما أسس بها كنيسته المنوفستية[٦]، وكان بهذه المدينة بيعة

(١) جرجى زيدان ، العرب قبل الإسلام ص٢٠ .
(٢) معجم ماستعجم . ج ١ ص ٣١٦ .
(٣) Hitti , History of the Arabs P . 61
(٤) Margoliouth , The Relations between Arabs and Israeiltes Prior to the Rise of Islam P . 63
(٥) Hitti , History of the Arabs P . 63.
(٦) Phillby , The Beckground of Islam p . 112

بناها بنو عبدالدار بن الديان الحارثى على مثال الكعبة وسموها كعبة نجران[١].

وكان يتولى شئون نجران رؤساء ثلاثة : السيد والعاقب والأسقف . فالسيد يعهد إليه تنظيم القوافل ووسائل النقل وإدارة العلاقات الخارجية ، والعاقب كان يتحمل جزءاً كبيرا من المسئوليه ، فعليه إدارة الأمور الداخلية الدنيوية[٢]. أما الأسقف ، فضلا عن إشرافه على المدارس الدينية التابعة لطائفته ، فإنه يشترك فى أعمال الحكومة ، فلا تصدر اى قرار دون أخذ رأيه[٣].

كذلك كانت بعض قبائل قريش تدين بالمسيحيه . نخص بالذكر منها بنى أسد بن عبدالعزى - الذين شاركهم مواليهم المعتقون معتقداتهم[٤] - كما اعتنق هذه الديانة أيضاً بنو امرىء القيس بن زيد مناة من تميم ، وبنو تغلب من ربيعة وبعض قبائل قضاعة[٥].

وعلى الرغم من أن اليهودية والنصرانية لم تنتشر انتشارا واسعاً فى بلاد العرب فإنهما أثرتا فى الوثنية العربية تأثيراً كبيراً ، ويتجلى هذا التأثير فى ظهور أفراد مستنيرين شكوا فى هذه الوثنية فتركوها وتهودوا وتنصر البعض . واكتفى فريق ثالث بفعل الخير وتجنب الشر ، وأخذ هذا الفريق يبحث عن ديانة إبراهيم الخليل - وكان حنيفاً يوحد الله ويعبده - فلما اهتدوا إليها اعتنقوا هذه الديانة . ومن هؤلاء ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٨ ص ٢٦٢ - ٢٦٤
(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام ص٣١ .
(٣) Lammens . Le Berceau de L'Islam . P . 252
(٤) Lammens L Arbie Occidentale avant L'Hegirl P 37
(٥) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ج ١ ص ٢١٤ ، الألوسى : بلوغ الأرب فى أحوال العرب ج ٢ ص ٢٦٤

وزيد بن عمرو بن نفيل بن عبدالعزى الذى قال عنه ابن هشام[١]، « وأما زيد بن عمرو فوقف ولم يدخل فى يهودية ولا نصرانية ، وفارق دين قومه ، فاعتزل الأوثان والميتة والذبائح التى تذبح على الأوثان ونهى عن قتل الموءودة ، وقال أعبد رب إبراهيم ».

ومنهم أيضا : كعب بن لؤى بن غالب ، وهو أحد أجداد النبى صلى الله عليه وسلم . وكان يجمع قريشا ويطلب منهم التفكير فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، ويذكرهم بالموت وأهواله واليوم الموعود وأحواله ، ويبشرهم بمبعث رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا من أوضح البراهين على تمسكه بدين إبراهيم عليه السلام وأخذه بالحنيفية[٢]

وقد سمى هذا الفريق من العرب بالحنفاء نسبة إلى لفظ حنيف وهو دين إبراهيم عليه السلام الذى أشار إليه الله تعالى فى هذه الآيات . (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت ، قال ياقوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين)[٣] .

وقال الله تعالى فى سورة آل عمران (آية ٩٥) .

(ماكان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما وماكان من المشركين) .

وقال الله تعالى فى هذه السورة أيضاً (آية ٩٥) :

(قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين) .

---

(١) سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ج ١ ص ٢٤٤

(٢) الألوسى : بلوغ الأرب فى أحوال العرب ج ٢ ص ٣١١ .

(٣) سورة الأنعام : آيات رقم ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩

الباب الثانى

ظهور الدعوة الإسلامية

١- بعثة الرسول

٢- الدعوة الإسلامية بمكة وموقف قريش منها

١ ـ بعثة الرسول

كان محمد من نخبة بنى هاشم وأشرف العرب بدواً وحضراً ، وأفضلهم بيتاً . نشأ يتيما ، فقد توفى أبوه عبدالله بن عبدالمطلب وهو حمل فى بطن أمه آمنة بنت وهب ، ثم توفيت أمه وله من العمر ست سنين وثلاثة أشهر ، فكفله جده عبدالمطلب بن هاشم ، وكان يجله ويتوسم فيه الخير ، ويدعه يجلس على فراشه ، ذلك أنه كان يفرش لعبدالمطلب بفناء الكعبة ، فلا يقرب أحد فراشه حتى يأتى رسول الله ـ وهو غلام ـ فيتخطى رقاب أعمامه ، فيقول لهم عبدالمطلب : دعوا ابنى إن لابنى هذا لشأنا[١].

لما مات جده ، كفله عمه أبوطالب بن عبدالمطلب وشمله برعايته وعطفه ، وخرج به إلى الشام فى تجارة وهو فى الثانية عشرة من عمره . فرأى أبوطالب ومن معه آيات نبوته مازاده حرصاً عليه ، وحين التقى به بحيرا الراهب فى بلدة بصرى لمح فيه علامات النبوة وطلب من أبى طالب أن يرجع به لئلا تراه اليهود فيلحقون به شراً[٢].

وعلى الرغم من صغر سن محمد فى ذلك الوقت ، فإنه استفاد كثيراً من الرحلات التجارية التى خرج فيها مع عمه ، وظل يخرج بالتجارة إلى بلاد الشام واليمن ويأكل من ثمرة عمله وكسب يده حتى ذاع بين الناس حسن أخلاقه وأمانته . ولما سمعت به السيدة خديجة بنت خويلد التى كانت تدعى

---

(١) ابن سعد: كتاب الطبقات الكبير ج ١ ص ٩٩ ، تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٨

(٢) المقريزى : إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع ج ١ ص ٧ ـ ٨ .

فى الجاهلية بالطاهرة ، عرضت عليه أن يخرج فى تجارة لها إلى الشام مع غلامها ميسرة . فرأى ميسرة من صدق حديثه وأمانته ويسر معاملته وعلو شأنه ماأعجبه ، فلما عاد إلى سيدته أخذ يمتدحه ويثني عليه ، فرغبت خديجة فى التزوج به لما رجته فى ذلك من الخير ، فقبل الرسول أن يتزوجها بعد موافقة أعمامه .

عاش محمد مع السيدة خديجة على أتم وفاق ، ولم يفكر فى الزواج بغيرها حتى توفيت ، لأنها كانت خير من عاونه فى بداية حياته ، وقد تحدث الرسول عن ذلك بقوله : « آمنت بى حين كفر بى الناس وصدقتنى ، حين كذبنى الناس ، واعطتنى مالها حين حرمنى الناس[١] » .

كان الرسول يعتنق دين الحنيمية ـ وهو دين إبراهيم ـ الذى دان به كثيرون من العرب الذين تنبهت عقولهم إلى انحطاط الوثنية ، ويخلو بغار حراء[٢] فيقيم فيه بعض الليالى ، ثم يرجع إلى أهله فيتزود بالطعام ويعود ثانية إلى الغار ليقضى به ليالى أخرى يتحنث فيها[٣] .

لما بلغ الرسول الأربعين من عمره ، نزل عليه الوحى وهو يتعبد بغار حراء يوم الاثنين ١٧ من رمضان ، وذلك أن جبريل عليه السلام أتاه ، فقال له : اقرأ ، قال : لست بقارىء ، فضمه إلى صدره ضمة قوية ، ثم أطلقه ، وقال له : اقرأ ، قال : لست بقارىء فقال له فى المرة الثالثة : اقرأ (باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم)[٤] فكانت هذه الآيات أول مانزل من القرآن .

(١) جاد المولى : محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل .

(٢) يشرف جبل حراء على مكة من شرقيها ، ويرى البيت الحرام من أعلاه وفيه الغار الذى كان يتعبد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم (القلقشندى : ج ٤ ص ٢٤٦) .

(٣) المقريزى : إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٢ .

(٤) سورة العلق ايه ١ ـ ٥



ى أعلى جبل النور وأمام غار حراء



غار حراء بمكة المكرمة



جبل النور وعلى قمته غار حراء

لم يعرف الرسول فى بادىء الأمر حقيقة الحالة التى شاهدها وهو يتعبد فى غار حراء ، فعاد إلى زوجه خديجة وهو يرتجف وقال : قد خشيت على نفسى ؛ فهدأت من روعه وقالت : كلا أبشر فوالله لاتخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل[١] وتقرى الضيف وتعين على نوائب الدهر[٢] .

مكث الرسول فترة من الزمن بعد أن جاءه جبريل بغار حراء لايرى شيئاً وفتر عنه الوحى ، فاغتم لذلك وصار يذهب إلى جبال مكة شوقاً إلى مشاهدة وحى الله إليه ، ثم ظهر له الملك الذى جاءه أولا بين السماء والأرض وبشره أنه رسول الله حقاً ، فلما رآه تهيب منه ورجع إلى داره وقال : دثرونى ، دثرونى ، فأنزل الله تعالى : (ياأيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر[٣]) . فكانت الحالة الأولى التى رآها الرسول بغار حراء نبوة وإيحاء ، ثم أمره الله تعالى فى هذه الآية أن ينذر قومه ويدعوهم إلى الله عز وجل ، فأخذ يفضى بالدعوة الإسلامية للمختصين به كزوجه خديجة وابن عمه على بن أبى طالب ومولاه زيد بن حارثة الكلبى ، ثم استجاب له أبوبكر عبدالله بن أبى قحافة القرشى التيمى ، فآزره فى الدعوة إلى دين الله وصدقه فيما جاء به ، فأسلم على يديه عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية ، والزبير بن العوام ، وسعد ابن أبى وقاص ، وعبدالرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، وتلا هؤلاء بعض رجالات قريش كأبى عبيدة عامر بن الجراح ، والأرقم بن أبى الأرقم بن عبد مناف - وكان النبى يستخفى فى داره[٤]

(١) الكل : العبء أو الثقل يتكلف الرجل حمله (حاشية رقم ٦ المقريزى : إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٣) .

(٢) النبهانى : الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ، ص٣٩ .

(٣) سورة المدثر آية ١ - ٤ .

(٤) كانت تقع على جبل الصفا ، وقد أسلم فيها كثير من العرب .

من قريش[١] - وعثمان بن مظعون ، وعبيدة بن الحرث بن المطلب بن عبد مناف ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى ، وجعفر بن أبي طالب ، كما أسلم من غير القرشيين خباب بن الأرت من بنى تميم ، وعبدالله بن جحش ، وصهيب مولى عبدالله بن جدعان وكثيرون غيرهم . كذلك استجاب لدعوة النبى نفر غير قليل من طبقة قريش الظواهر التى كانت تتألف من بطون قريش المستضعفة وحلفائها[٢] .

ظل الرسول ثلاث سنين يدعو إلى الإسلام سراً كل من يثق فيه ويطمئن إلى استعداده النفسى لقبول مبادئه ، وكان يصلى هو وأتباعه خفية فى شعاب مكة[٣] إلى أن أمره الله بإظهار دينه فيما أنزل عليه من الآيات (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ، إنا كفيناك المستهزئين[٤]) . وقوله : (وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون)[٥] . فهذه الآيات بمنزلة إعلان الدعوة الإسلامية ودعوة الناس إلى الإسلام .

جهر الرسول بأمر ربه بعد نزول هذه الآيات ، وأعلن الدعوة إلى وحدانية الله . وقد لجأ فى ذلك أول الأمر إلى طريقة النداء التى كانت متبعة عند قريش ، فسار إلى جبل الصفا بظاهر مكة ، ونادى كل بطن من بطون قريش ، باسمها . ولما اجتمعوا إليه قال لهم : « إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وإنى لاأملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلا أن

(١) المقريزى : إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٥ - ١٨ .
(٢) ابن هشام : سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ج ١ ص ٢٦٩ - ٢٧٤ .
(٣) ابن هشام : ج ١ ص ٢٧٥
(٤) سورة الحجرة : آيتان : ٩٤ ، ٩٥ .
(٥) سورة الشعراء آيات : ٢١٤ - ٢١٦

تقولوا لا إله إلا الله » ، فقال له أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا(١)؟ فأنزل الله فى أبى لهب وزوجه (تبت يدا أبى لهب وتب . ماأغنى عنه ماله وماكسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد)(٢).

واصل الرسول الجهر بالدعوة رغم مالقى فى بداية الأمر من معارضة كبار القرشيين له الذين آثروا البقاء على دينهم القديم خشية أن يفقدوا مكانتهم بين العرب إذا ماأيدوا الدعوة الإسلامية .

٢ - الدعوة الإسلامية بمكة وموقف قريش منها

لما بلغ القرشيين ماأكرم الله به رسوله صلى الله عليه وسلم من النبوة راعهم وكبر عليهم . ولم ينكروا عليه شيئاً من دعوته حتى عاب آلهتهم وسفه أحلامهم ، فأظهروا استياءهم من جهره بالدعوة إلى وحدانية الله خشية القضاء على عبادة الأوثان التى كان وجودها فى الكعبة مصدراً هاماً لثرائهم ، فعملوا على مناهضته وعادوه(٣). ولكن الله صان رسوله بعمه أبى طالب الذى كن شريفاً فى قومه ، مطاعاً فيهم ، فصدهم عنه .

لما رأى القرشيون أن أبا طالب عم الرسول لم يتعرض لدعوته ، بل ظل يعطف عليه ويحرص على صد كل أذى عنه ، سار إليه فريق من أشرافهم ، يسألونه أن يكف عنهم رسول الله ، وقالوا له : « إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آبائنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل مانحن من خلافه » .

(١) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ج ١ ص ١٨٤ .
(٢) سورة المسد .
(٣) المقريزى : إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٨ .

فرد عليهم أبوطالب رداً جميلا ، فانصرفوا عنه ، ومضى رسول الله ينشر دعوته(١).

ذاعت دعوة الرسول بين أهالى مكة ، وكثر التحدث عنه بين القرشيين ؛ وصار يحرض بعضهم بعضاً عليه ثم استقر رأيهم على أن يشكوه إلى عمه أبى طالب لعله ينصرف عن التعرض لمعبوداتهم ، فذهب إليه وفد منهم وقالوا له : « ياأبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك ، فلم تنهه عنا وإنا والله لانصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله » ثم انصرفوا عنه فعظم على أبى طالب فراق قومه وعدواتهم ، وبعث إلى الرسول وحدثه عما قاله قومه ، فظن أنه قد ضعف عن نصرته ومؤازرته ، وقال له : « ياعم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ماتركته » ، فقال أبوطالب : « اذهب يابن أخى فقل ماأحببت فو الله لاأسلمك لشىء أبداً(٢)» .

واصلت قريش سياستها فى مناهضة الدعوة الإسلامية ، فعهدت إلى بعض أفرادها بمهاجمة المسلمين فى قبائلهم وإلحاق الأذى بهم ليفتنوهم عن دينهم ولما رأى أبوطالب ماأصاب بنى هاشم والمطلب من أذاهم ، دعاهم إلى عدم التعرض للرسول ، فأجابوا طلبه(٣).

على أن قبيلة قريش لم تعدل عن موقفها إزاء سيدنا محمد رغبة منها فى المحافظة على نظامها وكيانها ، وتحقيقاً لهذه الغاية منوه بتوليته الملك عليهم إذا كف عن عودته ومهاجمته أوثانهم ، لكنه رد عليهم بقوله : « إن الله بعثنى رسولا وأنزل علىَّ كتاباً وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ،

(١) ابن هشام : سيرة النبى ج ١ ص ٢٧٧ .
(٢) ابن هشام : سيرة النبى ج ١ ص ٢٧٨ .
(٣) ابن هشام : سيرة النبى ج ١ ص٢٨١

فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم[١]» .

لما رأى القرشيون أن جدالهم للرسول لم يُجدهم نفعاً ، ولم يضعف من نشاطه فى نشر الدعوة الإسلامية ، استعانوا عليه بأحبار اليهود فى يثرب . فذهب إليهم بعض القرشيين وطلبوا منهم أن يدلوا برأيهم فى الرسول ، فقالوا لهم : سلوه عن ثلاثة ، فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وإن لم يجب فهو متقول ، سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ، وعن رجل طواف وعن الروح[٢] .

وقد قيل إن هذه الأسئلة لما ألقيت على سيدنا محمد لم يجب عليها من فوره ، ففرحت قريش ، ثم أنزل الله تعالى ذكر الفتية الذين ذهبوا وهم أصحاب الكهف وذكر الرجل الطواف وهو ذوالقرنين ، وقال فى الروح : (ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى وماأوتيتم من العلم إلا قليلا) .

لما علمت قريش بإجابة الرسول على الأسئلة التى وجهها أحبار اليهود استاءت واشتد تعرضها لمن آمن به ، فأقبل سفهاء أهل مكة من الكفار على المسلمين يعذبونهم ليردوهم عن دينهم حتى أن أبا جهل بن هشام بن المغيرة مر بسمية أم عمار بن ياسر وهى تعذب ، فطعنها بحربة أصابت منها مقتلا ، وكان أبوبكر الصديق إذا مر بأحد من العبيد يعذب اشتراه وأعتقه ، ومنهم بلال وعامر ابن فهيرة[٣] . وكان كفار قريش يضربون المسلمين ويضعون الصخور العظيمة على صدورهم فى شدة الحر ، فلم يزدهم ذلك إلا

(١) النبهانى : الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص ٤٥ .
(٢) ابن هشام : سيرة النبى ج ١ ص ٣٢١ .
(٣) النبهانى : الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص٤٦ .

إيماناً ، هذا ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله ليلا ونهاراً ، سراً وجهاراً ، ولايصده عن ذلك صاد ، ولايأخذه فى الله لومة لائم[١].

لما رأى الرسول ماأصاب أصحابه من الاضطهاد ، أذن لهم بالهجرة إلى الحبشة لما كان يعهده فى ملكها من العدل والتسامح ، وقد سبقهم عثمان ابن عفان ومعه زوجته السيدة رقية بنت الرسول ، وتبعه المسلمون فى الفرار من مكة ؛ فخرج أحد عشر رجلا وأربع نسوة متسللين إلى الشعيبة[٢] فركبوا سفينتين لبعض التجار إلى بلاد الحبشة ، وخرجت قريش فى آثارهم فلم يدركوا منهم أحداً[٣].

على أن بعض المهاجرين المسلمين إلى بلاد الحبشة مالبثوا أن ازمعوا العودة إلى مكة حين شاع بينهم نبأ دخول قريش فى الإسلام ؛ فلما قدموا إليها تبين لهم أن ماوصلهم عن إسلام أهل مكة غير حقيقى ، واشتد عليهم قومهم ولقوا منهم كثيراً من الأذى . فأذن لهم الرسول فى الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية فلاقوا فى خروجهم مشقة عظيمة وتعنيفاً شديداً من قريش . وقد تتابع المسلمون فى الهجرة من مكة فهاجر إليها ثانيا من الرجال ثلاثة وثمانون ، ومن النساء ثمانى عشرة امرأة ، فأكرمهم نجاشى الحبشة وأمنهم على حياتهم[٤].

لاشك فى أنه كان لهذه الهجرة أثر كبير فى نشر الإسلام وترغيب الناس فيه ، فقد ذاع بين العرب أن فريقاً من القرشيين هاجروا إلى الحبشة فراراً بدين تلقوه عن نبى بمكة ، وبذلك سمع عن الدين الإسلامى من لم

(١) المقريزى ؛ إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٨
(٢) الشعيبة مرفأ مكة ومرسى قبل جدة (حاشية رقم ٤ كتاب إمتاع الأسماع للمقريزى ص ٧٠)
(٣) ابن سعد ؛ كتاب الطبقات الكبير ج ١ ص ١٨٨
(٤) ابن سعد ؛ كتاب الطبقات الكبير ج ١ ص ١٩١ - ١٩٢

يسمح به من قبل ، كما أنه كان لخروج هذه الجماعة أثر فى تخفيف حدة عداء قومهم ، إذ رأوا فريقاً مضطهداً ، أو ذى فى دينه حتى اضطر أن يهاجر به إلى مكان بعيد .

وقد اضطربت قريش حين علمت بأمر هذه الهجرة ، إذ رأت أن الإسلام قد بلغ فى نفوس أهله مبلغاً كبيراً ، وأن كثيراً ، من الناس سيسارعون إلى الدخول فيه حين يرون أن وجودهم بالحبشة سينجيهم من عدوان قريش ، هذا إلى أنه إذا ماازداد عددهم وتلاحقوا إلى لحبشة أصبح فى استطاعتهم الوقوف فى وجه قريش .

لما رأت قريش أن المسلمين استقروا بأرض الحبشة ، بعثت فى أثرهم وفداً محملا بالهدايا والصحف يطلب من نجاشى الحبشة ردهم إلى مكة . وكان من أعضاء هذا الوفد عمرو بن العاص وعبدالله بن أبى ربيعة ، فلم يجبهم إلى ماطلبوا فوشوا إليه أن المهاجرين يقولون فى عيسى قولا عظيماً ؛ فاستدعى المسلمين إلى مجلسه وزعيمهم جعفر بن أبى طالب فقال : ماتقولون فى عيسى ؟ فتلا عليه جعفر صدراً من سورة (كهيعص) ، فبكى النجاشى وقال : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا فلا والله لاأسلمهم إليكما ؛ فرجع وفد قريش خائباً(١).

وهكذا لم تنجح وفادة قريش فبقى هؤلاء المهاجرون فى الحبشة حتى طلب النبى من النجاشى ـ بعد أن استقر له الأمر فى المدينة ـ أن يسمح لهم بالعودة إلى وطنهم فأذن لهم بمغادرة بلاده فعاد كثير منهم وظل بعضهم مقيما بالحبشة إلى السنة السابعة للهجرة(٢).

وبينما كان هناك فريق من المسلمين مهاجراً بالحبشة ، ظل الرسول مقيماً

(١) ابن هشام : سيرة النبى ج ١ ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ .
(٢) ابن سعد : كتاب الطبقات ج ١ ص ١٩٢ .

بمكة يدعو إلى الله ، معرضاً نفسه لعداوة قريش وخصومتها . وكان أشد القرشيين عداوة للرسول أبوجهل بن هشام بن المغيرة ، وأبولهب عبدالعزى ابن عبدالمطلب ، وعقبة بن أبى معيط . فلما أسلم حمزة بن عبدالمطلب فى هذه الفترة ، كف القرشيون عن بعض ماكانوا ينالون من الرسول لاعتقادهم أن حمزة سيصدهم عنه إذا ماحاولوا التعرض له . كذلك كان لإسلام عمر بن الخطاب فى ذلك الوقت أثر كبير فى تقوية شأن المسلمين بمكة . فكانوا قبل إسلامه لايستطيعون الصلاة عند الكعبة . فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عندها وصلى معه المسلمون ، وأصبح من اليسير على المسلمين أن يجهروا بتلاوة القرآن ، ولم يكونوا قبل ذلك يستطيعون الجهر به ؛ كما دخل فى الإسلام كثير من أهل مكة اقتداء بحمزة وعمر(١).

لما بلغ قريش إكرام النجاشى للقادمين عليه من المسلمين ، استاءت من ذلك ولجأت إلى وسيلة تؤذى بها محمداً وأتباعه ، فاتفقوا على أن يكتبوا فيما بينهم كتابا يتعاقدون فيه على ألا يعاملوا بنى هاشم وبنى عبدالمطلب فى بيع ولايتاجروا معهم ولايكلموهم ولايجالسونهم ولا يزوجوهم ولايتزوجوا منهم حتى يسلموا إليهم محمداً صلى الله عليه وسلم ليقتلوه ، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها فى جوف الكعبة ، توكيداً على أنفسهم(٢).

كان من أثر هذه المقاطعة أن انحاز بنو المطلب وبنو هاشم إلى شعب أبى طالب بشرقى مكة وظلوا مقاطعين ثلاث سنين ، لقوا فيها كثيراً من العناء ؛ فكانوا لايخرجون إلا من موسم إلى موسم ، ولايصل اليهم القوت

(١) المقريزى : إمتاع الأسماع ج ١ ص ٢٤ - ٢٥ .
(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٤ ، النبهانى : الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص ٤٢ .

الضرورى إلا خفية ؛ وأخيراً أخذت الحمية والرأفة نفراً من القرشيين ، خرجوا إلى بنى هاشم وبنى المطلب وأمروهم بالعودة إلى مساكنهم ؛ وبذلك نقضت صحيفة المقاطعة(١).

فقد الرسول بعد حادث المقاطعة بقليل عمه أبا طالب وزوجته خديجة ؛ فتألم لفقدهما فى عام واحد وسماه عام الحزن ، واشتد أذى قريش له بعد وفاة عمه . وقال : « مانالت قريش منى شيء أكرهه حتى مات أبوطالب » ، ذلك أنه لم يكن فى عشيرته وأعمامه حامياً له ولامدافعاً عنه غيره(٢).

رأى الرسول بعد أن نالت قريش منه وتجرأت على إلحاق الأذى به بعد وفاة عمه أبى طالب ، أن يلجأ إلى بلد آخر غير مكة ، ينشر فيه دعوته ، فخرج إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة يلتمس من ثقيف النصر لأنهم كانوا أخواله ، ويدعوهم إلى عبادة الله . فأقام بالطائف عشرة أيام ، دعا خلالها سادة ثقيف عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب بنو عمرو بن غمير إلى نصرته والقيام معه على من خالفه ؛ فلم يجيبوه ، وخافوا على أحداثهم أن يتأثروا بدعوته ، وطلبوا منه الخروج من بلدهم ، وأغروا به سفاءهم ؛ فصاروا يرمونه بالحجارة ؛ وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى شج فى رأسه . ثم انصرف الرسول من الطائف عائداً إلى مكة دون أن يستجيب له أى فرد من أهالى ذلك البلد .

ولما وصل الرسول إلى حراء عائداً من الطائف ، بعث رجلا من خزاعة إلى المطعم بن عدى ليجيره حتى يبلغ رسالة ربه ، فأجاره ودخل رسول الله مكة ، وعاود نشر الإسلام بين أهلها(٣) ولم يمض غير قليل حتى أسرى برسول الله من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ببيت المقدس ، حيث

(١) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير جـ١ ص١٩٤ .
(٢) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ١ ص٢٧ .
(٣) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير جـ١ ص ١٩٥ - ١٩٦ .

عرج به من الصخرة المقدسة[١] إلى سدرة المنتهى[٢]. يقول الله تعالى: (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير)[٣]. وفرضت عليه الصلوات الخمس تلك الليلة[٤].

لما رأى النبى أن قريشاً لازالت تعمل على مناوأته فكر فى التحول عن مكة . فصار كلما اجتمعت قبائل العرب فى موسم الحج يقدم نفسه إليهم ويدعوهم إلى الله وإلى الإسلام . ويقول لهم : من رجل يحملنى إلى قومه فيمنعنى حتى أبلغ رسالة ربى فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ رسالة ربى[٥]. ومن هذه القبائل : بنو عامر وغسان وبنو فزارة ، وبنو مرة ، وبنو حنيفة ، وبنو سليم ، وبنو عبس ، وبنو نصر ، وكندة ، وكلب ، وبنو الحارث بن كعب ، وبنو عذرة ؛ فلم يستجب منهم أحد[٦]. ويقال إن الرسول صلى الله عليه وسلم بدأ بكندة ، فدعاهم إلى الإسلام ثم أتى كلب ثم أتى بنى حنيفة ، فدعاهم إلى الله ، فلم يكن أحد من العرب أقبح رداً عليه منهم ، ثم أتى بنى عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله ، فقال رجل منهم : « أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ » فقال له الرسول « الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء[٧].

كان الأوس والخزرج يسمعون من حلفائهم يهود المدينة بنى قريظة والنضير أن نبياً سيبعث ويتوعدونهم به إذا حاربوهم ، فلما قدموا لزيارة البيت الحرام فى السنة الحادية عشرة من البعثة ، رأوا الرسول يدعو الناس

---

(١) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ج ١ ص١٣٣ .
(٢) النبهانى : الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص ٥١ .
(٣) سورة الإسراء آية ١ .
(٤) المقريزى : إمتاع الأسماع ج ١ ص ٢٩ .
(٥) المقريزى : إمتاع الأسماع ج ١ ص ٣٠ - ٣١ .
(٦) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ج ١ ص ٢٠١ .
(٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٨٣ - ٨٤ .

إلى الله فلاحظوا أمارات الصدق لائحة عليه ، وقال بعضهم لبعض : والله هذا الذى توعدكم يهود به ، فلا يسبقنكم إليه ثم انصرفوا إلى بلادهم .

ولما قدم بعض الأوس إلى مكة يطلبون محالفة قريش ضد قومهم من الخزرج أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى الإسلام ، فقال أحدهم وهو إياس بن معاذ : هذا والله خير مما جئنا له . ثم عاد وفد الأوس إلى المدينة دون أن يعقدوا حلفاً مع قريش(١).

وفى موسم الحج التالى ليوم بعاث خرج الرسول يعرض نفسه على قبائل العرب كعادته فى كل موسم وبينما كان عند العقبة بمنى لقى ستة نفر من الخزرج فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن ، فلقيت دعوته قبولا منهم ؛ وعادوا إلى المدينة حيث أخذوا ينشرون الإسلام بين قومهم حتى لم تبق دار من دور عرب المدينة إلا وفيها ذكر الرسول(٢).

فلما كان العام المقبل وفد إلى مكة اثنا عشر ، منهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ؛ فبايعوا الرسول عند العقبة بمنى على الإسلام ، وتعرف تلك البيعة ببيعة العقبة الأولى ، وبعث معهم الرسول مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار ليقرئهم القرآن ويدعوهم إلى عبادة الله . فنزل مصعب بإحدى دور المدينة وصار يدعو أهلها من العرب إلى الإسلام ، ويصلى بالمسلمين ويتلو عليهم القرآن . ولم يمض عام حتى أصبحت كل أسرة من عرب المدينة تضم فريقاً ممن دخل فى الإسلام على يد مصعب بن عمير(٣).

وفى العام التالى خرج من يثرب ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان من الأوس والخزرج ، من المسلمين الذين أسلموا حديثاً قاصدين مكة ، وكان

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ٣٥ ، المقريزى : امتاع الأسماع جـ١ ص٣٢ .
(٢) ابن هشام : سيرة النبى جـ٢ ص٣٨ - ٣٩ ، ابن الأثير جـ٢ ص٣٦ .
(٣) ابن الأثير : جـ٢ ص٣٦ - ٣٧ .

بصحبتهم مواطنوهم من المشركين(١). وقد اجتمع الرسول بهؤلاء الوافدين من يثرب بالعقبة حتى لايثير قريش ولايستهدف لعداوتها ؛ وكان يرافقه عمه العباس - مع أنه لايزال على دين قومه - وأبوبكر ، وعلى بن أبي طالب . وقد بدأ العباس بالكلام فى ذلك الاجتماع فأثنى على ابن أخيه وذكر أنه فى عز من قومه ومنعة فى بلده ، على أنه أبى الانحياز إلى أهل يثرب ، وطلب منهم أن يتدبروا قبل أن يأخذوا على عاتقهم الوفاء له وحمايته ممن يخالفونه وأن يعقدوا العزم على ألا يرجعوا عن عهدهم إذا مااستهدفوا لخطر ، عندئذ أكد البراء ابن معرور - أحد رجال الخزرج - أنهم صادقون فى عزمهم وطلب الى الرسول أن يتكلم فى صراحة ؛ فقام سيدنا محمد وبدأ حديثه بتلاوة بعض آيات القرآن الكريم ودعاهم إلى الله ورسوله ورغّبهم فى الإسلام فقبلوا دعوته وبايعوه وتعهدوا له بالدفاع عنه ، كما رحبوا بهجرته إلى بلدهم ، ثم قام أبوالهيثم مالك ابن التيهان - أحدر رجال الأوس - ، فقال : « يارسول الله ، إن بيننا وبين الناس (يعنى اليهود) حبالا وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن أظهرك الله عز وجل أن ترجع إلي قومك وتدعنا » فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « بل الدم الدم والهدم الهدم(٢). أنتم منى وأنا منكم ، أسالم من سالمتم وأحارب من حاربتم أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا يكونوا نقباء على الناس » فاختاروا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ليكونوا رؤساء عليهم . وبهذه البيعة التى تعرف ببيعة العقبة الثانية تمهدت للمسلمين الهجرة إلى يثرب .

ولاشك أن مبادرة هؤلاء الممثلين للأوس والخزرج إلى اعتناق الإسلام والترحيب بهجرة الرسول إلى مدينتهم ، ترجع إلى عدة عوامل ،

---

(١) الطبرى : جـ ٣ ص ٩٠

(٢) أى ذمتى وحرمتى حرمتكم (ابن هشام جـ ٢ ص ٥)

فمن الناحية الدينية كان عرب يثرب كثيراً مايسمعون من اليهود أن نبياً سيبعث ، فلما رأى حجاجهم سيدنا محمد وعرفوا أنه نبى مرسل ، تحدثوا عنه إلى قومهم ، فبادروا إلى تصديقه ، هذا إلى أنه لم يكن للأوس والخزرج فائدة مادية من وراء التمسك بالوثنية ، كما كان لقريش فى مكة ، لأن سادتها ضعف أمرهم من جراء الحروب التى أنهكت قواهم ، فلم يقاوموا النظام الجديد كما حدث فى مكة حيث لاحظنا أن رجالات قريش هم الذين قاوموا الدعوة الإسلامية دون غيرهم من عامة العرب .

ومن الناحية السياسية ، كانت علاقة اليهود بعرب يثرب سيئة ، حتى أن هؤلاء العرب صمموا قبل هجرة النبى إلى المدينة على جلاء اليهود عنها واحتلال أراضيهم التى كانت أخصب بقاع المدينة . كذلك كان العرب أنفسهم متعادين ، فقد وقعت بين الأوس والخزرج حروب طويلة نخص بالذكر منها ماحدث فى « بعاث » حيث غلبت الخزرج قبل الهجرة بسنوات قلائل .

وقد وجد بعد موقعة بعاث ميل من جميع القبائل العربية بيثرب من الأوس والخزرج إلى تولية عبدالله بن أبى بن سلول سيد الخزرج[١] ، غير أنه حدث أن قصد حجاجهم مكة واجتمعوا بالرسول صلى الله عليه وسلم بالعقبة ثم بايعوه وقبلوا دعوته ، كما رحبوا فى العام التالى بهجرته إلى بلدهم حين طلب منهم ذلك ، وتعهدوا له بحمايته ، فلما رجعوا إلى قومهم ، دعوهم إلى نصرة الإسلام والدخول فى طاعة الرسول ، فلقيت دعوتهم قبولا منهم وعدلوا بذلك عن تمليك عبدالله بن أبى[٢] .

وقد سارع الأوس الى قبول دعوة الرسول والترحيب بهجرته ، لاعتقادهم أنه لن يتقدم عليه أحد بيثرب . أما الخزرج ، فقد رحبوا بدعوة

(١) السمهودى : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى جـ ١ ص ١٥٥ .
(٢) ابن خلدون : جـ ١ ص ٢٩٠ - ٢٩٢ .

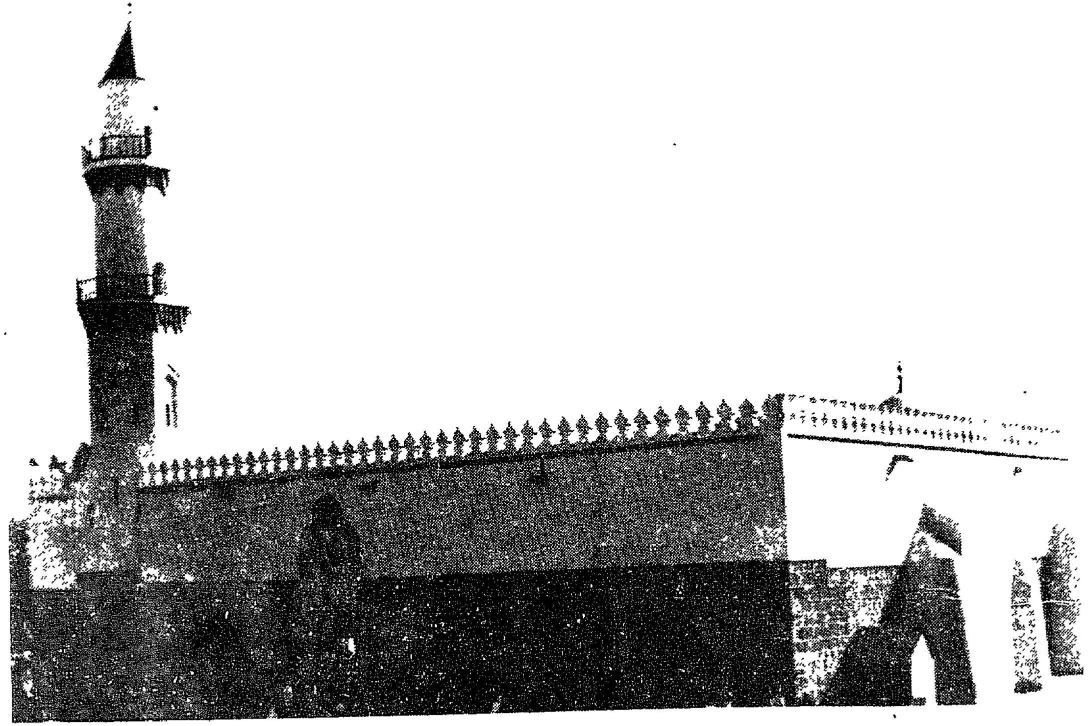
الرسول وهجرته إلى مدينتهم لأنه من أكرم بيوتات قريش وساداتها ، ولصلة النسب التي تربطهم به ، فهو ابن آمنة بنت وهب من بني النجار إحدى بطون قبيلتهم(١) ، وفضلا عن ذلك فإن انهزامهم في موقعة بعاث جعلهم يسارعون إلى قبول دعوته ومبايعته لوثوقهم من أنه يستطيع جمعهم مع الأوس تحت لوائه .

* * *

لما علمت قريش بنبأ تحالف الرسول مع عرب يثرب في بيعة العقبة الثانية ، اضطربت اضطراباً شديداً ، واشتد أذاها على المسلمين ، فأذن الرسول لأتباعه بمكة في الهجرة إلى المدينة ، وقال ، « إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها(٢) » ، فتجهزوا إليها في ستر وخفاء وصاروا يتعاونون بالمال . وكان كل مهاجر من قريش وحلفائهم يستودع دوره وماله رجلا من قومه . فمنهم من حفظ الوديعة ومنهم من تصرف فيها وفق رغبته ، وخرج المسلمون جماعة بعد جماعة ، حتى لم يبق بمكة إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبوبكر الصديق وعلي بن أبي طالب ومن اعتقله المشركون كرها(٣) .

ولما بلغ قريش تأهب الرسول للهجرة إلى يثرب ، اجتمع رجالها بدار الندوة(٤) يتشاورون فيما يصنعون في أمره ، فاتفق رأيهم على قتله ، فأعلمه الله بذلك . وخرج من داره ليلا بعد أن أمر علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه وقابل أبا بكر الصديق وأخبره أن الله قد أذن له في الخروج من مكة ، فطلب منه أن يصحبه في هجرته ، فأجابه إلى ماطلب ، ومضى به

(١) حسن ابراهيم : الإسلام السياسي جـ ١ ص ٨٠ .
(٢) ابن هشام : سيرة النبي جـ ٢ ص ٧٦ .
(٣) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير جـ ١ ص ٣١٠ - ٣١١ ، المقريزي : امتاع الأسماع جـ ١ع ص ٣٧ - ٣٨ .
(٤) بنى هذه الدار قصي بن كلاب ليحكم فيها بين قريش ، ثم صارت لتشاورهم وعقد الألوية في حروبهم (ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار جـ ١ ص ١١٣) .



مسجد قباء .. أول مسجد أسس على التقوى

إلى غار بجبل ثور[١].

كانت قريش إذ ذاك ترقب حركات الرسول ، وانتدبت من تتبع أثره حتى وصل بعضهم إلى الغار ، فأوجس أبوبكر خيفة ، وأخذ الرسول يهدىء من روعه . وإلى ذلك يشير القرآن الكريم فى سورة التوبة (آية ٤٠) (إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم) .

فلما مضت ثلاث ليال على الرسول وأبى بكر وهما بالغار ، أتاهما دليلهما ثم نزلا وركب كل منهما راحلة ، وساروا فى طريق يثرب حتى بلغا ضاحية من ضواحيها تسمى قباء[٢]فنزل الرسول على بنى عمرو بن عوف وأقام عندهم أربعة أيام ، وأسس بقباء مسجداً[٣]، ثم خرج يوم الجمعة راكباً ناقته ، فلما أتى بنى سالم صلى الجمعة بمن معه من المسلمين ـ وهم إذ ذاك مائة ـ ، وهى أول جمعة أقامها الرسول صلى الله عليه وسلم فى الإسلام[٤]وألقى عليهم خطبة بدأها بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله ، ثم قال : « أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم ، تعلمن والله ليصعقن أحدكم ، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه ـ ليس له ترجمان ولاحاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك ؟ وآتيتك مالا وأفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ؟ فلينظرن يمينا وشمالا فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشقة من تمرة فليفعل

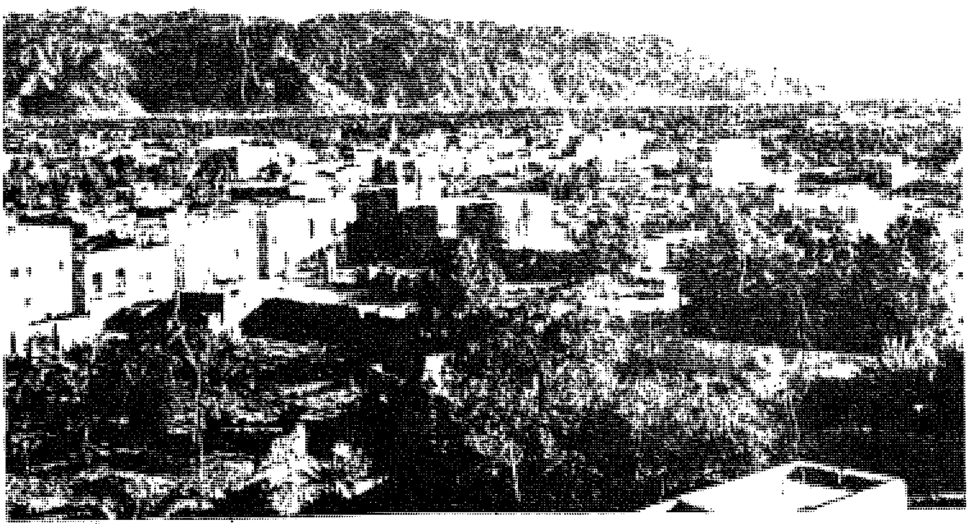
(١) جبل يشرف على مكة من جنوبها (القلقشندى : جـ ٤ ص ٢٤٧)
(٢) موضع يقرب المدينة على بعد ميلين منها .
(٣) الطبرى : جـ ٣ ص١٠٧ .
(٤) ابن هشام : سيرة النبى جـ ٣ ص١١١ ـ ١١٢ .

ومن لم يجد فكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والسلام على رسول الله ورحمة الله وبركاته[١] » .

* * *

ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته بعد صلاة الجمعة متوجهاً إلى المدينة ، وكان كلما مر على دار من دور الأنصار يدعونه إلى المقام عندهم ، قائلين : يارسول الله ، هلم إلى القوة والمنعة ، فيقول خلوا سبيلها (يعنى ناقته) ، فإنها مأمورة[٢] » ولم تزل ناقته سائرة به حتى إذا أتت دار بنى مالك بن النجار بركت فى مربد[٣] لغلامين يتيمين من بنى النجار ، ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها وحمل أبو أيوب خالد بن زيد الأنصارى رحله وأضافه فى داره ، واشترى الرسول المربد بعشرة دنانير وأمر أن يبنى فى مكانه مسجد للمسلمين ، ويبنى إلى جانبه مساكنه التى انتقل إليها بعد أن استغرق بناؤها سبعة أشهر ، قضاها فى ضيافة أبى أيوب الأنصارى[٤] .

(١) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٤٦ ـ ٤٨
(٢) النبهانى : الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص٥٩ .
(٣) المربد : الموضع الذى يجف فيه التمر (حاشية رقم ١ ـ ابن هشام جـ ٢ص١١٣) .
(٤) ابن هشام : سيرة النبى جـ ٢ ص ١١٣ ـ ١١٤ ، ابن سعد ، كتاب الطبقات الكبير جـ ٢ ص ٢٢٤ .



من ضواحي المدينة المنورة

الباب الثالث

سياسية الرسول بعد هجرته إلى المدينة

١- تنظيم صفوف المسلمين بالمدينة وتوكيد وحدتهم

٢- سياسة الرسول فى إخضاع عرب الحجاز

٣- موقف الرسول من يهود الحجاز

٤- توجيه الدعوة الإسلامية إلى خارج بلاد الحجاز

٥- تأمين حدود بلاد العرب الشمالية وتوطيد سلطان المسلمين عليها

٦- تحقيق الوحدة الدينية والسياسية بجزيرة العرب

١ - تنظيم صفوف المسلمين بالمدينة وتوكيد وحدتهم

لم يكتف الرسول صلى الله عليه وسلم منذ قدم على المدينة بتبليغ الوحى الذى ينزل عليه خاصا بالأمور التشريعية العامة ، بل رأى أن يعنى بالوسائل التى ينظم بها الحياة فى المدينة لأنه أصبح زعيم جماعة من العرب لهم صفة سياسية بجانب كونه نبيا مرسلا عليه أن يبلغ رسالة ربه .

وكان بالمدينة حين هاجر إليها الرسول ، المسلمون من الأوس والخزرج الذين عرفوا بالأنصار ، وبعض مشركى هاتين القبيلتين ، واليهود ، ثم وفد إليهم المهاجرون ـ وكان كثير منهم تجاراً تركوا أموالهم فى مكة ولاأمل لهم فى استردادها ـ فدعا الرسول الأنصار إلى مساعدتهم .

كذلك حاول الرسول تنظيم صفوف المهاجرين والأنصار بالمدينة وتوكيد وحدتهم عن طريق تآلفهم حتى لاتثور العداوة القديمة بينهم ، فآخى بين أصحابه من المهاجرين والأنصار على الحق والمواساة[١]، وكانوا يتوارثون بهذا الإخاء إرثاً مقدما على القرابة[٢]، فاذا مات المهاجر ورثه أخوه الأنصارى ، وإذا مات أحد الأنصار ورثه أخوه المهاجر . وكان الرسول يرمى من وراء المؤاخاة بين أصحابه من المهاجرين والأنصار أن يذهب عنهم وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد أزر بعضهم ببعض[٣].

---

(١) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير جـ ٢ ص ٣
(٢) المقريزى : إمتاع الأسماع ص ٤٩
(٣) حاشية رقم ٣ (ابن هشام) سيرة النبى جـ ٢ ص ١٢٣)

ولما شرع الرسول فى تنفيذ مشروع المؤاخاة ، قال لأصحابه : « تآخوا فى الله أخوين أخوين » ، ثم اخذ بيد على بن أبى طالب ، وقال : « هذا أخى » فكان رسول الله وعلى بن أبى طالب أخوين ، وصار حمزة بن عبدالمطلب وزيد بن حارثة مولى الرسول أخوين . وتآخى أبوبكر الصديق مع خارجة بن زيد من الخزرج(١) . وأصبح كل واحد من المهاجرين الذين وفدوا إلى المدينة متآخيا مع أحد الأنصار ؛ وبهذه المؤاخاة توثقت وحدة المسلمين فى المدينة .

تيسرت سبل العيش على المهاجرين بالمدينة بفضل حسن معاملة الأنصار لهم ، ذلك أنهم منحوهم بعض أموالهم وسمحوا لهم بالتجارة والاشتراك معهم فى زراعة أراضيهم ، كما كان لفرض الزكاة على المسلمين بعد مقدم الرسول المدينة أثر فى تحسين حالهم(٢) .

كذلك أذن الرسول لفقراء المسلمين بالمدينة الذين ليس لهم منازل ولاعشائر أن يبيتوا فى المسجد ، وكان يدعو طائفة منهم ليلا لتناول العشاء معه ، ويكلف أصحابه بإطعام الآخرين ، وقد عرف ذلك الفريق من المسلمين بأهل الصفة(٣) . لأنهم كانوا يأوون إلى صفة المسجد ، وهى المكان المسقوف منه(٤) .

ظل التوارث بالمؤاخاة قائما حتى اجتمع شمل الأنصار والمهاجرين وأوقعوا الهزيمة بالمشركين فى غزوة بدر وعز شأن الإسلام ، فأنزل الله تعالى فى سورة الأنفال (آية ٧٥) : (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله إن الله بكل شىء عليم) . فنسخت هذه الآية ما كان قبلها ورجع

---

(١) ابن هشام : سيرة النبى جـ ٢ ص ١٢٣ - ١٢٤
(٢) المقريزى : امتاع الأسماع ص ٥٠
(٣) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير جـ ٢ ص ٢٠
(٤) : حياة محمد ص ٢٢٠

كل مسلم إلى نسبه وورثه ذوو قرباه[1]. ـ

لما استقر الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، رأى أن يضع نظاماً للحياة العامة فيها ، يكون أساساً لتحقيق الوحدة بين أهاليها ، فكتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار . كما عاهد اليهود واشترط عليهم وشرط لهم[2]. ويتضمن هذا الكتاب الأمور الآتية :

١ ـ أن جميع المسلمين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم أمة واحدة ويتبين ذلك من هذه الفقرة : « إنهم أمة واحدة من دون الناس » .

٢ ـ التضامن والتعاون بين الجماعة الإسلامية ، ويؤكد هذا المعنى قوله : « إن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس » .

٣ ـ فتح الطريق للراغبين من اليهود فى الإسلام ، وكفل لهم التمتع بما للمسلمين من حقوق فيقول : « وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولامتناصر عليهم » .

٤ ـ تقرير حرية الاعتقاد لليهود : « لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم » .

مايتبع فى فض الخصومات بين أهالى المدينة فيقول : « وإنه ماكان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ؛ فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ».

٦ ـ تضمن الكتاب كيف تعامل قريش التى كانت إذ ذاك تقف من المسلمين فى المدينة موقفاً عدائياً ، فقال : « وإنه لاتجار قريش ولامن نصرها وإن بينهم النصر على من دهم يثرب » .

(١) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير جـ ٢ ص ٣
(٢) ابن هشام : سيرة النبى جـ ٢ ص ١١٩ ـ ١٢٣

٧ - يبين الكتاب مايتبع فى الحرب التى قد تقع بين المسلمين فى المدينة وأعدائهم ، ويقرر أن كل جماعة تنفق على نفسها فيقول : « وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة » .

٨ - يقرر الكتاب حرمة المدينة ، أى أنه يحرم فيها مايحرم بمكة .

لم يرد هذا الكتاب الا فى سيرة ابن إسحق التى نقلها ابن هشام . ويظهر لنا من نصوصه أنها تتفق مع منطق الحوادث فى المدينة ؛ فسكانها المسلمون من المهاجرين والأنصار كانوا بحاجة إلى نظام يجمع شملهم ويحدد علاقتهم بعضهم ببعض . وقد فطن الرسول لذلك . فضمن كتابه المبادىء الهامة التى يجب عليهم اتباعها فى السلم والحرب ، كما عاهد اليهود وأقرهم على دينهم وأموالهم ليطمئن إلى جوارهم .

* * *

كان الرسول صلى الله عليه وسلم ميالا للسلم ، فلم يلجأ للقتال طيلة إقامته بمكة ، بل عمد فى نشر دعوته إلى مجادلة المشركين وإقناعهم بالدليل والبرهان فلما اشتد أذاهم على المسلمين واضطروهم إلى الهجرة من مكة إلى الحبشة أولا ثم إلى المدينة ثانياً ، رأى الرسول أن يوحد بين المهاجرين والأنصار حتى يتيسر لهم الوقوف فى وجه أعدائهم . وكان قبل هجرته إلى المدينة قد بايعه فريق من الأوس والخزرج فى بيعة العقبة الثانية ، وتعهدوا له بالدفاع عنه وحمايته ، كما تعهد لهم بالعمل على نصرتهم وبذلك تهيأ المسلمون للذوذ عن أنفسهم .

ولما استقر لهم الأمر بالمدينة وقويت شوكتهم ، فرض الله عليهم الجهاد فى السنة الثانية للهجرة . فنزلت الآية فى سورة الحج (آية ٣٩٠) مقررة ومشرعة للحرب (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على

نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) والمراد بهذه الآبة أن الله أحل القتال للمسلمين لأنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم لا لسبب سوى عبادة الله

وتلا هذه الآية فى أمر الجهاد قوله تعالى فى سورة الأنفال (آية ٣٩) . (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير) والمراد بذلك أن الله شرع القتال حتى لايفتن المؤمن عن دينه .

كذلك أنزل الله تعالى هذه الآية فى سورة البقرة (اية ٢١٦) يقرر فيها الجهاد (كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لاتعلمون ،

وقد شرع الجهاد لأمور منها

١ ـ تأمين الدعوة الإسلامية وصد من يقف فى سبيلها حتى لايفتن أحد من المسلمين عن دينه .

٢ ـ قيام المسلمين بالذود عن أنفسهم

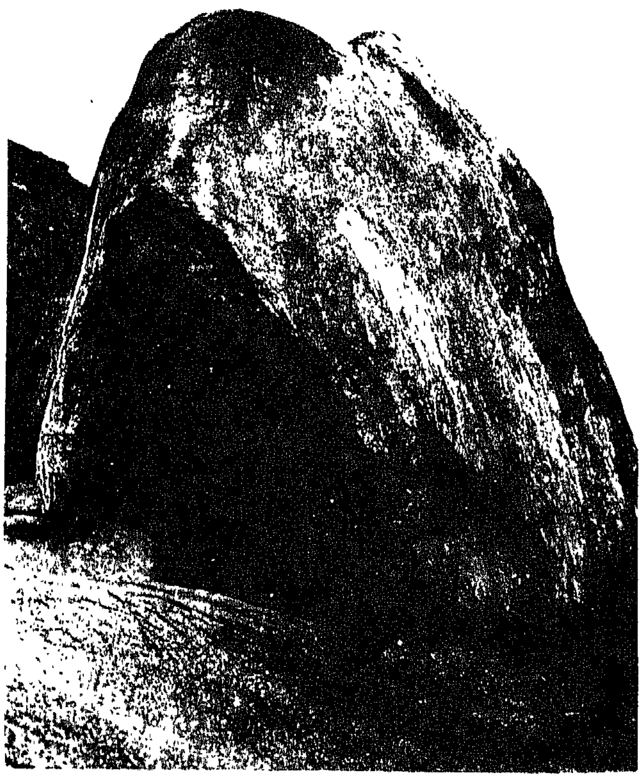
٣ ـ محاربة الذين اضطروهم إلى الخروج من ديارهم بغير حق ،

كان لتشريع الجهاد أهمية خاصة بالنسبة للمسلمين بالمدينة ، فقد أعطاهم صفة سياسية لم يتمتعوا بها من قبل ، ذلك أنهم أصبحوا نواة الأمة العربية الإسلامية ، عليهم أن يجاهدوا فى سبيل إعلاء كلمة الإسلام وجمع شتات العرب .

وقد أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم بعد نزول آيات تشريع الجهاد ينشر الدعوة الإسلامية بين القبائل العربية ، ويعد العدة لصد كل اعتداء يصيب المسلمين من معارضيهم ، كما عول بعد مقدمه المدينة على الاقتصاص

من قريش التى اضطرت المسلمين إلى الخروج من مكة تاركين أموالهم ومتاعهم .

وقد عقد الرسول فى بداية الأمر ألوية بعض السرايا للمهاجرين دون الأنصار لأنهم تعرضوا وحدهم لإيواء قريش بمكة وقاسوا آلام الهجرة . وكان الغرض من هذه السرايا أن يظهروا لقريش قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم ودرء خطر يحيق بهم ، هذا إلى استطاعتهم التعرض لقوافلهم التجارية المارة ببلدهم .



غار ثور « اذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا »

٢ ـ سياسة الرسول فى إخضاع عرب الحجاز لسلطته

استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة أن يجعل سكانها من المسلمين يتطلعون إليه زعيما وقائداً ، ولايعترفون بسلطان غير سلطانه[١]. ولما جمع شملهم ونظم أمورهم واصل جهاده فى سبيل الله ، وكان المهاجرون والأنصار خير عون فى نشر دعوته .

كان جهاد الرسول وصحابته موجهاً فى بداية الأمر إلى القرشيين بمكة الذين احتفظوا بالوثنية وناصبوا المسلمين العداء ، وقد وقف المهاجرون والأنصار صفاً واحداً مع الرسول فى العمل على صد أى اعتداء خارجى يحيق بهم . ولما كانت قريش هى البادئة بمناهضة المسلمين ، لذلك صاروا يترقبون الفرص لإخضاع شوكتها والقضاء على نظامها القديم حتى يتيسر لهم جعل مكة مركزاً دينيا للمسلمين ، كما كانت مقصداً لحج القبائل العربية جميعا .

وقد وجه الرسول جهوده فى السنوات الأولى من هجرته إلى إستمالة القبائل المقيمة فى الطريق بين مكة والمدينة إلى جانبه وارتبط بأكثرها برابطة الحلف ، وكان يرمى من وراء ذلك إلى إيجاد حلفاء له خارج المدينة كما أصبح له أنصار فى داخلها . هذا إلى أن محالفة الرسول للقبائل التى تقيم فى طريق قوافل قريش التجارية تثير روع القرشيين وتجعلهم يخشون بأس المسلمين بالمدينة .

كذلك وجه الرسول همته إلى الوقوف فى سبيل تجارة قريش التى كانت عماد حياتها . وكان الرسول نفسه ملما بشئون التجارة وواقفا على مدى عناية قريش بها على اعتبار أنها مصدر ثروتهم ، فهو من هذه الناحية يعرف كيف يحمل قريشاً على التسليم له من أقرب طريق ، كما لم يغب عنه حرص

(١) راجع : كتاب الدعوة إلى الإسلام ص ٣٦ ـ ٣٧ .

قريش على أن تسير قوافلها التجارية فى أمن وطمأنينة بين مكة وبلاد الشام . فلما اطمأن إلى محالفة القبائل الضاربة بين مكة والمدينة ، خرج مع بعض أصحابه لاستطلاع حركات القرشيين والوقوف فى طريقهم لكنه سرعان ماكان يعود دون أن يشتبك معهم فى قتال ، ثم وجه عبدالله بن جحش على سرية من المهاجرين ليس بينهم أحد من الأنصار ، وأمره أن يترصد قريشاً بمكان يقال له نخلة بين مكة والطائف ويأتيه بأخبارهم[1]فمضى عبدالله مع أصحابه حتى نزل بنخلة ، فمرت بهم قافلة لقريش تحمل تجارة وذلك فى آخر رجب من السنة الثانية للهجرة ، فهابوا أول الأمر محاربتهم فى هذا الشهر ـ الذى كان العرب إذ ذاك يعدونه من الأشهر التى يحرم فيها القتال ـ ، ثم أجمعت أغلبيتهم على قتالهم وأخذ مامعهم ، فأصابوا بعض رجالهم وغنموا ماكانت تحمله إبلهم من التجارة ، وعادوا إلى المدينة محملين بالأموال التى غنموها ، فأوقف الرسول الإبل ولم يأخذ منها شيئاً ، وقال لهم ﷺ ماأمرتكم بالقتال فى الشهر الحرام كما عنفهم إخوانهم من المسلمين ، فسقط فى أيديهم[2]

انتهزت قريش فرصة اشتباك من المسلمين معهم فى القتال فى شهر رجب فحملت عليهم ، وأعلنت فى كل مكان أن محمداً وأصحابه استحلوا الشهر الحرام[3]فأنزل الله تعالى فى سورة البقرة (آية ٢١٧) (يسألونك عن الشهر الحرام ، قتال فيه ، قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به ، والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله) . وقد أظهرت هذه الآية أن ماقامت به قريش من صد المسلمين عن سبيل الله وإخراجهم من المسجد الحرام أكبر عند الله من القتال فى الشهر الحرام .

(١) ابن هشام : سيرة النبى جـ ٢ ص ٢٣٩ ، اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٥٣ .
(٢) المقريزى : امتاع الأسماع ص ٥٧ ـ ٥٨ .
(٣) ابن هشام : سيرة النبى جـ ٢ ص ٢٤١

حدثت بعد هذه السرية وقائع متصلة بين المسلمين والقرشيين فى مكة ، ترمى إلى تحقيق غرض معين ومبدأ ثابت ، سواء أكان من وجهه نطر المدينة أو من وجة نطر مكة ، فأهالى المدينة من المسلمين وعلى رأسهم الرسول ، كانوا برون ضرورة القضاء على نفوذ القرشيين حتى يتيسر لهم نشر الدعوه الاسلامية وضم مكة إلى حورتهم . أما أهالى مكة ، فقد أيقنوا من خطر وجود المسلمين بالمدينة على تجارتهم القادمة من الشام الى مكة كما رأوا فى انتشار الاسلام خطراً على ديانتهم الوثنية وعلى سيادتهم على الكعبة التى كانوا يجنون من ورائها فوائد مادية . لذلك وجه كل فريق اهتمامه إلى أضعاف شوكة خصمه والتخلص منه . وقامت فى سبيل هذه الأمنية ، وقائع هامة بين المسلمين من جهه ، والقرشيين ومن انضم اليهم من القبائل العربية بالحجاز من جهة أخرى .

عزوة بدر

يرجع السبب فى وقوع هذه الغزوة إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد ندب نفراً من المسلمين للوقوف على أخبار قافله قريش وهى قادمة من الشام إلى مكة ، فلما علم بذلك أبوسفيان بن حرب رئيس القافلة ، أنفذ إلى قريش بمكة من يخبرها بمحاولة المسلمين التعرض لتجارتها ، ثم غير طريقه وسار محاذيا ساحل البحر (الأحمر) حتى جاوزت موقف المسلمين ، وبهذه الوسيلة استطاع أن ينجو بالقافلة[١] .

ولما علمت قريش بالخطر الذى ستتعرض له تجارتها التى كانت تقدر بما يساوى خمسين ألف دينار[٢] ، استولى عليهم الذعر والخوف ، وعولوا على الخروج لنجدة عيرهم وإنقاذ تجارتهم ، فخرجوا من مكة بدون تعبئة

---

(١) المقريزى : امتاع الأسماع جـ ١ ص ٦٩ - ٧٠

(٢) المقريزى : امتاع الأسماع جـ ١ ص ٦٦ .

منظمة ، وكان عددهم يتراوح بين التسعمائة والألف ، وفي هذه الأثناء كان أبوسفيان قد تمكن من النجاة بالقافلة ، فأرسل إلى قريش يخبرها بذلك وطلب إليها أن تعود إلى مكة ، لكن قريشاً تغلبت عليها الروح الحربية ، فصممت أن تسير إلى بدر[١] لتظهر قوتها للمسلمين ولغيرهم من قبائل العرب[٢]

كان الرسول إذ ذاك قد خرج من المدينة مع أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم ثلثمائة وخمسة[٣]ـ ، وبينما هو فى طريقه الى بدر ، أتاه الخبر بمسير قريش ، فرأى أن الفرصة سانحة للتنكيل بها ، واستشار أصحابه فى الأمر ، فأعلن كبار المهاجرين موافقتهم على الخروج لمهاجمة قريش . أما الأنصار ، فكان قد تم الاتفاق بينهم وبين الرسول فى بيعة العقبة الثانية على أن يدافعوا عنه وعن المهاجرين إذا تعرضوا للأذى لا أن يساعدوه فى الهجوم ، فلما شاورهم فى أمر قتال قريش ، أظهروا له طاعتهم فى كل مايطلب منهم . وقال سعد بن معاذ : « امض يارسول الله لما أردت ، فنحن معك فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد . . » فسر الرسول بقول سعد وقال : « سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم[٤] » ، فتابع المسلمون سيرهم حتى اذا ماوصلوا الى أدنى ماء من بدر ، رأى الرسول أن ينزل بهذا المكان ، فسأله الحباب بن المنذر : أعن أمر من الله نزلت هذا المنزل أم هو الرأى والحرب

(١) بدر : مكان بين مكة والمدينة على بعد ٣٨ فرسخا من المدينة ، به واد وآبار وفى أرحائه نخيل وحدائق

(٢) ابن هشام . سيرة النبى جـ ٢ ص ٢٩٨ .

(٣) المقريزى : امتاع الأسماع ج ١ ص ٦٤ .

(٤) ابن هشام . سيرة النبى ج ٢ ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤ ، المقريزى امتاع الاسماع جـ ١ ص ٧٣ ـ ٧٥ .

والمكيدة ؟ فقال الرسول : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » ، فأشار عليه الحباب بن المنذر أن يمضى بالمسلمين عن هذا المنزل حتى ينزل بهم فى مكان قريب من الماء ، فاستحسن الرسول هذا الرأى(١)، ونزل المسلمون فى الجهة الشرقية من الوادى الذى تقع فيه بدر ، فى ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان . أما قريش فنزلت فى ثنايا التلال الغربية . وقد نام المسلمون جميعاً فى هذه الليلة نوماً هادئاً ، وكان ذلك مما زاد فى نشاطهم فى صباح اليوم التالى حيث دارت المعركة ، على حين باتت قريش ساهرة . كذلك أمطرت السماء فى تلك الليلة مطراً غزيراً فى الجهة التى كانت تعسكر فيها قريش . أما الموقع الذى نزل فيه المسلمون فنزل به رذاذ من المطر .

كانت القوة التى مع المسلمين من الإبل ، فنزول المطر الخفيف فى الجهة التى يعسكرون فيها لبد الأرض وساعد على مسير إبلهم . أما قريش فكان معها عدد كبير من الخيل ، فغزارة المطر من الناحية التى تعسكر فيها بللت الأرض ، وكان ذلك مما عرقل مسير خيلها وإبلها . وهكذا كان نزول المطر نعمة وقوة للمؤمنين وبلاء ونقمة على المشركين(٢)،

كان المسلمون مع قلة عددهم يسودهم النظام ، فقد صف النبى أصحابه حين أخذ يتهيأ للمعركة ، وعلى العكس من ذلك قريش ، فلم يكن لها قيادة عليا تشرف على تنظيم صفوفها . وعلى هذه الحال اشتبك الفريقان فى قتال تشوبه النفحة البدوية والبطولة .

وقد أسفرت واقعة بدر عن انتصار المسلمين على قريش التى أسر منها سبعون ، كما قتل سبعون من رجالاتها . أما المسلمون فقد استشهد منهم أربعة

(١) ابن هشام : سيرة النبى جـ ٢ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .
(٢) المقريزى : امتاع الأسماع جـ ١ ص ٧٨.

عشر ، سته من المهاجرين وثمانيه س الأنصار[١].

قدم الرسول المدينة بعد انتهاء واقعه بدر مظفرا ، قد اعلى الله كلمته وأعز نصره . وكان لهذا النصر ، نتائج بعيدة الأثر ، فدخل فى الإسلام كثير من المشركين ، كما ضعفت شوكة اليهود والمنافقين حتى لم يبق يهودى ولامنافق فى المدينة الا وقل كبرياؤه[٢].

ولاشك فى أن ماانتهت اليه واقعة بدر من إحراز المسلمين النصر على ثلاثة أمثالهم من القرشيين يحملنا على اعتبارها إحدى معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى ايات القرآن مايشعرنا بذلك ، ففيها أن الملائكة مدوا المسلمين فى هذه الواقعة حتى انتصروا على قريش التى تفوقهم فى العدد . يقول الله تعالى فى سورة الأنفال (آية ٩) : (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) .

استفاد المسلمون من وراء انتصارهم فى واقعة بدر فائدتين إحداهما معنوية تتمثل فى وثوقهم بأنهم على الحق وأن خصمهم على الباطل ، وثانيتهما ماديه هى الغنائم التى اكتسبوها ، وكانت كثيرة ، من بينها إبل ومتاع وثياب أسلحة[٣] وقد قسمها الرسول بين المسلمين الذين اشتركوا فى هذه الواقعة والذين تخلفوا عنها بإذن منه[٤]

كذلك أصبح لدى المسلمين بما أسفرت عنه غزوه بدر من أحكام شرعية قواعد ثابتة يسيرون وفقها فى حروبهم ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالغنائم والأسرى . وقد نزلت فى الغنائم هذه الآية فى سورة الأنفال (آية ٤١) : (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى

١) اليعقوبى تاريخ اليعقوبى حـ ٢ ص ٣٤ ، المقريزى ، امتاع الأسماع جـ ١ ص ١٠١
(٢) المقريزى . امتاع الأسماع ج ١ ص ٩٩ .
(٣) ابن هشام : جـ ٢ ص ٢٨٤ و ٣١٢ ، المقريزى . امتاع الأسماع ج ١ ص ٩٣ - ٩٤
(٤) ابن سعد . كتاب الطبقات الكبير جـ ٣ ص ٥٧ .

القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم امنتم بالله ومأأنزلنا على عبدنا يوم لفرقان يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قدير) .

أما الأسرى فبعضهم قتل مثل النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط ، والبعص قبل النبى أخذ الفديه منه ، والبعض الآخر الذى ليس لديه مال منَّ عليه الرسول ، وجعل النبى صلى الله عليه وسلم فداء الرجل مابين الالف رهم وأربعة الاف درهم[1] .

وكان فى الأسرى من يجيد الكتابة ويعجز عن دفع الفداء لفقره ، على حين لم يكن فى الأنصار من يعرفها ، فجعل رسول الله فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة . وكان كل أسير يعلم عشرة من الغلمان الكتابة يخلى سبيله . فتعلم يومئذ زيد بن ثابت الكتابة مع جماعة من غلمان الأنصار . فتلك الأحكام وهى القتل والفداء والمن كان يجوز تطبيقها على الأسرى ، لكن فيما بعد نجد أن الاية القرآنية فى سوره محمد (آية ٤) نصت على الفداء والمن : (فإذ لقتم الدين كفروا ، فضرب الرقاب حتى إدا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) .

غزوة أحد[٣] .

رأت قريش بعد أن خصت بها . . . فى واقعه بدر أن تثأر لأشرفها وسمعتها ولمن قتل من رجالاتها ، لذلك كانت هى البادئه فى العدوان . ومما يدلنا على شدة حرصها على الأخذ بالثأر أنها ظلت تستعد مده سنة لحرب لرسول وأصحابه وبذلت فى هذا لسبيل مجهودا كبيراً ، كما خصصت أموال القافلة التى حاول المسلمون اعتراضها وهى قادمة من الشام والتى كانت السبب فى واقعة بدر للانفاق منها على تلك الحرب وطابت أنفس أشرافها أن

(١) اليعقوبى تاريخ لعقوبى جـ ص٣٤ ، المقريزى امتاع الأسماع جـ ص٩٠ ، ٩٦

(٢) أحد : اسم جبل شمال المدينة .

يجهزوا من تلك الأموال جيشاً[١]. فنزل فيهم قول الله تعالى فى سورة الأنفال (آية ٣٦) (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون) .

كذلك دعت قريش حلفاءها من ثقيف وقبائل تهامة وكنانة للاشتراك معها فى محاربة المسلمين ، كما استعانت أيضاً بالأحابيش[٢]. ولما تم استعدادها خرجت بحلفائها إلى المدينة فى شوال سنة ٣ هـ بقيادة ابى سفيان بن حرب[٣].

لما بلغ النبى قدوم قريش على المدينة ، استشار أصحابه كعادته فى مثل هذه المواقف ، فمنهم من أشار بالاكتفاء بالدفاع ، ومنهم من أشار بالخروج من المدينة ومقاتلة قريش . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يرى وجوب البقاء فى المدينة والاكتفاء بالدفاع عنها ، وقال لأصحابه « امكثوا فى المدينة واجعلوا النساء والذرارى فى الآطام[٤]، فإن دخل علينا قاتلناهم فى الأزقة » ، وقد أيده فى ذلك أكابر الصحابة من المهاجرين والأنصار ، كما وافقه عبدالله بن أبى .

أما أنصار الرأى الثانى ، فكان أغلبهم من الشبان الذين لم يشهدوا بدراً ، ومن المسلمين المتحمسين للقاء العدو ، وهؤلاء قالوا للرسول :

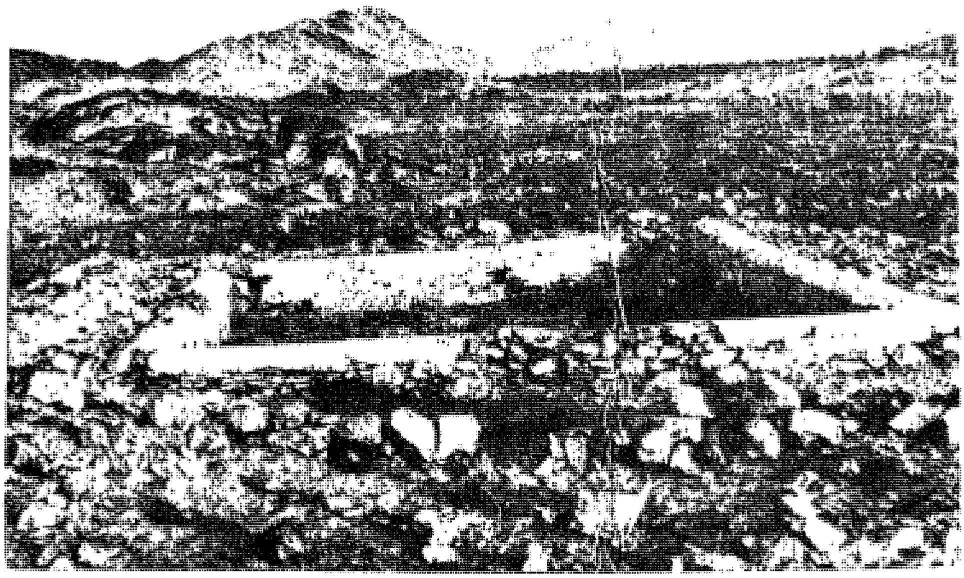
(١) المقريزى : امتاع الأسماع جـ ١ ص ١١٣ .

(٢) الطبرى : جـ ٢ ص ١٨٨ ، وابن الأثير : جـ ص٥٦

الأحابيش : اختلف المؤرخون فى أصلهم ، فقيل انهم عرفوا بذلك نسبة الى جبل حبشى باسفل مكة ، وكان قد اجتمع عنده فى الجاهلية بنو المصطلق وبنوالهون بن خزيمة ، حالفوا قريشاً فسموا أحابيش قريش . حاشية رقم ٢ « المقريزى : امتاع الأسماع جـ ١ ص ١٢٨ ، على انه من المحتمل أن يكونوا من أصل حبشى أو من الأرقاء الذين يغلب عليهم العنصر الأسود .

(٣) ابن هشام . سيرة النبى جـ ٣ ص ٥ .

(٤) الأطام : جمع آطم وهى بيوت من حجارة كان يسكنها أهل المدينة .



من مقابر الشهداء في أحد

اخرج بنا إلى أعدائنا لايرون أنا جبنا عنهم وضعفنا[١] »

قبل الرسول رأى هذا الفريق لكثرة عدد أنصاره وقوة بأسهم ، ثم خرج من المدينة فى ألف من المسلمين ، ولم يكد يبلغ الشوط[٢] حتى تخلى عنه عبدالله ابن أبى مع فريق من الجيش بحجة أن النبى لم يأخذ برأيه . وقد ترتب على ذلك حدوث بعض الاضطراب فى صفوف المسلمين[٣].

لم يعبأ الرسول بتخلف عبدالله بن أبى وأتباعه وواصل السير حتى نزل بعدوة[٤] الوادى ، فاستقبل المدينة وترك جبل أحد خلف ظهره حتى لاتهاجمه قريش من خلفه وجعل وراءه الرماة - وهم خمسون رجلا - وولى عليهم عبدالله بن جبير[٥] ، وقال لهم : احموا لنا ظهورنا ، فإنا نخاف أن نؤتى من ورائنا ، وألزموا مكانكم لاتبرحوا منه . واذا رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولاتدافعوا عنا . اللهم إنى أشهد عليهم ، وأرشقوا خيلهم بالنبل فإن الخيل لاتقدم على النبل[٦] . . أما قريش وحلفاؤها فنزلوا ببطن الوادى من قبل أحد مقابل المدينة . وعلى ميمنتهم خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبى جهل[٧] .

ابتدأت الواقعة بهجوم من جيش المسلمين على كتائب المشركين حتى اختلت صفوفهم وولوا منهزمين ، فتبعهم المسلمون وأخذوا يجمعون ماوجدوه فى طريقهم من الغنائم ، فلما رأى الرماة ، رسول الله وأصحابه

(١) ابن هشام : سيرة النبى جـ ٢ ص ٧ ، الطبرى جـ ٢ ص ١٨٩
(٢) الشوط : مكان خارج المدينة بينها وبين أحد
(٣) المقريزى : امتاع الأسماع ج ١ ص ١٢٠
(٤) العدوة : شاطىء الوادى وجانبه الصلب
(٥) ابن هشام : سيرة النبى ج ٢ ص ٥٧
(٦) المقريزى : امتاع الأسماع جـ ١ ص ١٢٤ - ١٢٥
(٧) النبهانى : الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص٧٢

متقدمين فى جوف عسكر المشركين ، تركوا أماكنهم وسارعوا إلى جمع الغنائم ، فعاود المشركون الهجوم بعد تفرقهم ، وحاصروا المسلمين من كل جهة . وانتهز خالد بن الوليد فرصة خلو الجبل من الرماة وأتى المسلمين من خلفهم وأعمل الرماح فى ظهورهم[١]، فانتقضت صفوف المسلمين وصاروا كما يقول الطبرى[٢] ـ ثلاثة أقسام مابين قتيل وجريح وفريق منهزم جهدته الحرب لايدرى مايصنع وقد حاول هذا الفريق الهرب فى ثنايا الجبل . ولم يثبت مع الرسول سوى أربعة عشر ، سبعة من المهاجرين ومثلهم من الأنصار[٣]

تعرضت حياة الرسول فى هذه الواقعة للخطر ، فأصيب بعدة جراح وأشيع أنه قتل ، وكان لهذه الإشاعة أثرها السيء فى نفوس المسلمين ، ففضلا عن أنها أدت إلى اضطراب صفوفهم ، أضعفت من حماسهم فى مقاتلة القرشيين ، غير أنهم مالبثوا أن استعادوا قوتهم وانشرحت صدورهم حين ظهر أمامهم الرسول سالماً .

استطاعت قريش أن تأخذ بثأرها من المسلمين فى واقعة أحد . ولما رأى زعيمها أبوسفيان بن حرب أنه قتل من أعدائه بقدر ماقتل من قريش فى واقعة بدر أزمع العودة إلى مكة . أما الرسول فظل معسكراً بعض الوقت بجوار المدينة خشية أن تهاجمها قريش ، وبعث على بن أبى طالب فى آثارها ، وقال له : « انظر ماذا يصنعون وماذا يريدون ، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ، فإنهم يريدون مكة وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة ، فوالذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن اليهم ثم لأناجزنهم » . فسار على فى آثارهم ، فرآهم امتطوا الإبل وجنبوا الخيل

(١) ابن الأثير : جـ ٢ ص٥٧ ، المقريزى : امتاع لاسماع جـ ١ ص ١٢٥ ـ ١٢٨
(٢) الأمم والملوك جـ ١ ص ١٩٧
(٣) المقريزى : إمتاع الاسماع جـ ١ ص ١٥٧

يريدون مكة[١].

غزوة الخندق أو الأحزاب :

وقعت هذه الغزوة فى السنة الخامسة للهجرة ، ويطلق عليها غزوة الخندق للظاهرة الحربية التى امتازت بها عن سائر الغزوات ، فقد أحاط الرسول فيها المدينة بخندق ليحول دون مهاجمتها ويصد به العدو . كما عرفت أيضاً بغزوة الأحزاب لانضمام جماعات من القبائل العربية واليهودية الى قريش فى محاربة المسلمين .

هناك أسباب مباشرة وأخرى غير مباشرة لهذه الغزوة فمن الأسباب غير المباشرة العداوة الأصلية بين المسلمين والقرشيين ، أما الأسباب المباشرة فتتلخص فى أن اليهود من قبيلتى بنى النضير وبنى قينقاع الذين أجلاهم الرسول عن المدينة لعدم إخلاصهم للعهد المأخوذ عليهم ، ونزحوا إلى خيبر حيث أقاموا مع قومهم من اليهود ، ثم سار بعضهم إلى مكة ـ وعلى رأسهم ـ حيى بن أخطب النضرى ، وأخذوا يحرضون القرشيين ويدفعونهم الى محاربة المسلمين ، كما أغروهم بمساعدات مالية وإمدادات حربية . واجتهدوا أيضاً فى إثارة القبائل النازلة بأطراف نجد ممايلى الحجاز مثل قبيلة غطفان ، فذهبوا اليهم ودعوهم إلى محاربة الرسول وأخبروهم أن قريشاً انحازت الى جانبهم ووعدوهم بمنحهم غلة خيبر فى سنة إذا مانصروهم ، فأجابوا طلبهم[٢].

تأهبت قريش لقتال المسلمين وبعثت تدعو العرب إلى معاونتها ، كما ألبوا أحابيشهم ومن تبعهم من بنى كنانة ، وبذلك وجد حلف قوى قوامه قريش وغطفان ببطونها المختلفة واليهود المقيمون بخيبر ، ويعبر عن هذه القبائل

(١) الطبرى : جـ ٢ ص ٢٠٦ ، ابن الأثير : جـ ٢ ص ٦١

(٢) ابن هشام ؛ سيرة النبى جـ ٢ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ ، المقريزى ، امتاع الأسماع جـ ١ ص ٢١٦ ـ ٢١٧

بالأحزاب . وكان لكل جماعة قائدها ، فابوسفيان بن حرب قائد قريش وحلفائها من الأحابيش وبنى كنانة وتهامة . وعيينة بن حصن الفزارى قائد غطفان ، وحيى بن اخطب قائد اليهود ، وقد تجمع من هذه الأحزاب عشره آلاف(١) .

حرجت قريش من مكة لمحاربة الرسول بالمدينة ، وكانت ترمى من وراء اشتراكها فى هذه الحرب ، إضعاف شأن المسلمين وإتمام النصر الذى حالفها فى واقعة أحد ، أما القبائل الأخرى التى حالفت قريش وانضميت اليها . فكانت تسعى من ورائها حروجها لمحاربة المسلمين إلى الحصول على الغنائم ، وكان اليهود يأملون من وراء إثارة القبائل العربية وعلى الاحص ... المسلمين إلى استعاده نفوذهم وثروتهم بالمدينه

لما علم الرسول بحروج قريش وحلفائها إلى المدينة وكثرة عددهم دعا المسلمين واحبرهم بما وصل إليه أمر العدو ، وشاورهم أيحرج من المدينه ام يظل بها ، أم يعسكر قريباً منها والجبل وراءهم ، فكان الرأى الاغلب الا يحرجوا إلى عدوهم ، وأن يلتزموا حطة الدفاع . ولما رأى سلمان الفارسى(٢) أن رسول الله ﷺ يهم بالمقام فى المدينة حتى يرد إليها

---

(١) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير حـ ٣ ص ١٠٨

(٢) كان سلمان من أسره فارسه فى اصبهان ، يدين بالمجوسة ، ثم اعتنق الدين النصرانية التى كانت إذ ذاك منتشره فى العراق . وعندما فطن أبوه لذلك حاول أن يصرفه عن ذلك الدين الجديد ، فحبسه ليحول بينه وبين الاتصال بالنصارى المقيمين بجواره ، لكنه استطاع الهرب ، فحرج مع قافلة كانت تقصد بلاد الشام ، ثم التقى ببعض التجار وطلب اليهم أن يحملوه إلى بلاد العرب فاظهروا له استعدادهم لإجابة طلبه ولما بلغوا وادى القرى باعوه لرجل يهودى ، ثم انتقل من ملكية هذا الرجل إلى ابن عم له من يهود يثرب ، ولما هاجر النبى إلى المدينة ، أسرع سليمان إلى اعتناق الاسلام كما فعل كثير من الأرقاء ، وساعده النبى على أن يؤدى لمولاه مبلغاً من المال ليسترد حريته

ابن هشام ، سيرة النبى جـ ص ٣٣٣ ـ ٢٤٩

ابن حجر ، الاصابة فى تمييز الصحابة . حـ ٢ ص ٦٠

الأعداء فيحاربهم ، أشار عليه بحفر خندق حول المدينة[١].

أعجب الرسول برأى سلمان الفارسى وركب مع بعض أصحابه ليرتاد موضعاً ينزله ، فرأى أن ينزل بسفح سلع - وهو جبل بالشمال الغربى من المدينة - ثم دعا المسلمين وأخبرهم بأن عدوهم على مقربة منهم ، ودلهم على الموضع الذى ارتاده لهم لحفر الخندق ، وعين لكل قبيلة حداً يحفرون إليه ، واشتغل معهم بنفسه فى الحفر ، وجعل للخندق أبواباً عهد بحراستها إلى نفر من المسلمين ؛ فاختار من كل قبيلة رجلا وولى الزبير بن العوام الرئاسة عليهم[٢]. ولما تم حفر الخندق عسكر الرسول وأصحابه ، فجعل جبل سلع خلف ظهره والخندق أمامه[٣].

أقبل القرشيون وحلفاؤهم فى هذه الأثناء لمهاجمة المدينة ونزلوا فى شمالها بمكان يعرف بمجتمع الأسيال[٤]، ثم عمد أبوسفيان إلى استمالة بنى قريظة ، فانتدب لذلك حُيىّ بن أخطب النضرى وقال له : « أئت قومك حتى ينقضوا العهد الذى بينهم وبين محمد » ، فنزل حيى على كعب بن أسد سيد بنى قريظة وأخذ يبين له أن من مصلحته ومصلحة قبيلته نقض العهد الذى بين قومه وبين الرسول والانضمام إلى جانب قريش وحلفائها ؛ فامتنع أول الأمر ، ومازال به حتى أقنعه بالعدول عن رأيه وأجاب طلبه ؛ وبذلك نقض بنو قريظة حلفهم مع الرسول[٥].

لما علم الرسول أن بنى قريظة نقضت مابينه وبينها من عهد وتأهبت مع

(١) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٢١٩ - ٢٢٠
(٢) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٣٧ .
(٣) الطبرى : جـ ٢ ص ٢٣٧ ، المقريزى . إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٢٠ - ٢٢٥ .
(٤) ابن الأثير جـ ٢ ص ٦٧ .
(٥) ابن هشام : سيرة النبى جـ ٣ ص ١٣٥ - ١٣٦ ، وابن سعد ، كتاب الطبقات الكبير جـ ٣ ص ١٠٩

قريش لمحاربة المسلمين ، اشتد ذلك عليه ، وبعث سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، وأسيد بن حضير ليتحققوا مابلغه عن موقف بني قريظة وأوصاهم بألا يجهروا بما يرونه خشية أن يفت ذلك فى عضد المسلمين(١)، فلما قدموا على بنى قريظة ثبت لهم تغير موقفهم نحو الرسول وعزمهم على الغدر . فكان ذلك مما أوقع الذعر فى قلوب المسلمين لأنهم رأوا العدو أحاط بهم من فوقهم ومن أسفل منهم وإلى ذلك يشير القرآن الكريم فى سورة الأحزاب(٣): (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً) .

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يخشى أن تسرع بنو قريظة فى الاغارة على المدينة ليلا . فلما وصله أنها تأهبت لمهاجمتها عهد إلى فريق من جند المسلمين بحراسة المدينة . أما القرشيون وحلفاؤهم فإنهم أقبلوا فى هذه الأثناء نحو الخندق ، فلما رأوه قالوا : « والله إن هذه لمكيدة ماكانت العرب تكيدها » وصاروا يطوفون بخيلهم حول الخندق لعلهم يعثرون على مضيق منه يمكنهم من عبوره ، ولم تخف على المسلمين حركات المشركين ، فردوهم على أعقابهم حين حاولوا اقتحام مضيق من الخندق(٤).

لم يشتبك المسلمون مع القرشيين وحلفائهم فى حرب حاسمة فى واقعة الخندق ، وإنما اقتصر الأمر على مبارزات فردية بين الفريقين وحصار من ناحية قريش للمدينة(٥). ومع أن هذا الحصار لم يطل أمده فإن أثره كان

(١) الطبرى : جـ ١ ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .
(٢) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير جـ ٣ ص ١٠٩ ، والمقريزى . امتاع الأسماع جـ ١ ص ١٢٧ .
(٣) آية ١٠ و ١١ .
(٤) ابن هشام : سيرة النبى جـ ٣ ص ٢٤ ، الطبرى : جـ ٢ ص ٢٣٩ .
(٥) الطبرى : جـ ٢ ص ٢٢٧ ، النبهانى ؛ الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص ٥٨ .

سيئاً بالنسبة للمسلمين . فلما اشتد عليهم البلاء بسبب ذلك الحصار ، رأى الرسول أن الحيلة التى اتبعتها قريش لاستمالة بنى قريظة إلى جانبها يستطيع أن ينقضها بحيلة مثلها . فعهد إلى نُعيم بن مسعود الغطفانى بتفريق كلمة الأحزاب ـ وكان قد قدم مع قومه لمحاربة المسلمين فهداه الله إلى الإسلام وأتى النبى ليلا وأعلن له إسلامه ، كما طلب إليه أن يكلفه بما يريد ـ ، فقال له الرسول : « إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خُدعة[1] » .

كان نعيم بن مسعود على جانب عظيم من الدهاء والمكر ، كما أنه كان صديقاً لبنى قريظة . فتوجه إليهم فى بادىء الأمر ، وأشار عليهم ألا يقاتلوا مع قريش وغطفان حتى يأخذوا رهنا من أشرافهم ، فقبلوا رأيه ، ثم قدم على أبى سفيان وبحضرته كثير من رجال قريش ؛ فأعلمهم أن بنى قريظة قد ندموا على ماكان منهم ، وأنهم راسلوا محمداً بأنهم سيسلمونه سبعين رجلا من أشراف قريش وغطفان ليضرب أعناقهم على أن يعيد بنى النضير إلى ديارهم بيثرب ، وأنهم سيكونون معه حتى يردوا قريشا عنه ، وأشار عليهم ألا يعطوا بنى قريظة الرهائن . ولما فرغ نعيم من التحدث مع قريش ، ذهب إلى غطفان فأعلمهم عن بنى قريظة بما أعلم به قريشاً عنهم ، وحذرهم أن يعطوها رهناً[2] .

ولما كانت ليلة السبت من شوال سنة ٥ هـ ، أرسل أبو سفيان إلى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل مع نفر من قريش يطلب منهم الخروج غداً لمحاربة الرسول[3] فقالوا : « إن غداً السبت لانقاتل فيه ولانعمل عملا ، وإنا مع ذلك لانقاتل معكم حتى تعطونا رهانا من رجالكم لئلا تبرحوا ،

(١) ابن هشام : سيرة النبى حـ ٣ ص ٢٤٧
(٢) ابن هشام : سيرة النبى حـ ٣ ص ٢٤٧ ، المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٣٧ .
(٣) ابن الأثير : جـ ٢ ص ٦١

فإنا نخشى إن أصابتكم الحرب أن تشمروا إلى بلادكم وتدعونا إلى محمد ولاطاقة لنا به » ؛ فثبت لقريش صحة ماقاله نعيم بن مسعود ، ورأوا أن اليهود نقضوا ماتعهدوه لهم .

كذلك أرسلت غطفان إلى بنى قريظة رسولا يطلب منهم الخروج معهم لمحاربة الرسول ، فأجابوا بمثل ماأجابوا رسول قريش ؛ فاتضح لغطفان صحة ماقاله نعيم ؛ وبذلك يئس كل منهم من مساعدة الآخر ، وأخذ أبو سفيان ومن معه يلومون حيى بن أخطب لفشله فى استمالة بنى قريظة ؛ فكان ذلك مما جفزه على أن يعاود الحديث مع بنى قريظة فى شأن اشتراكهم فى محاربة المسلمين ؛ فلم يجد منهم تأييداً له ، وأبوا أن يقاتلوا مع قريش حتى يأخذوا سبعين رجلا من قريش وغطفان رهاناً عندهم ، ثم أرسل الله ريحاً على الأحزاب فى ليال شاتية شديدة البرد حالت بينهم وبين مواصلة القتال وانطلقوا لايلوى أحد على أحد[1]. وأنزل الله فى سورة الأحزاب[2] يذكر نعمته على المسلمين (ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جاءتكم جنود ، فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيراً) .

ولما شرع أبو سفيان فى الرحيل إلى مكة بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً ، جاء فيه : « باسمك اللهم ، فإنى أحلف باللات والعزى لقد سرت إليك فى جمعنا وإنا لانريد أن نعود أبداً حتى نستأصلكم ، فرأيت قد كرهت لقاءنا وجعلت مضايق وخنادق ، فليت شعرى من علمك هذا؟ فإن نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم أحد » فكتب إليه الرسول : « من محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى أبى سفيان بن حرب ، أما بعد فقديماً غرك بالله الغرور ، أما ماذكرت ـ أنك إلينا فى جمعكم وأنك لاتريد

(١) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير جـ ٣ ص ١١ ، المقريزى . امتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٣٨ .

(٢) آية ٩

أن تعود حتى تستأصلنا فذلك أمر يحول الله بينك وبينه ويجعل لنا العاقبة حتى لاتذكر اللات والعزى . وأما قولك : من علمك الذى صنعنا من الخندق ؟ فإن الله ألهمنى ذلك لما أراد من غيظك وغيظ أصحابك وليأتين عليك يوم تدافعنى بالراح ، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وإساف ونائلة وهبل حتى أذكرك ذلك »[١].

ولما اطمأن الرسول إلى أن الأحزاب رحلت إلى بلادها ، أذن للمسلمين فى الانصراف إلى منازلهم بالمدينة . فعادوا فرحين مسرورين بعد أن دام حصار الخندق مايقرب من ثلاثين يوما[٢].

ولاشك أنه كان لفشل الأحزاب ورجوعهم عن المدينة منهزمين أثر عظيم فى نفوس المسلمين والعرب كافة ، فقد تبين لهم أن المدينة لاتؤخذ عنوة وإن حشرت لها آلاف الجنود من الحجاز ونجد . وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين جلت الأحزاب عن المدينة : « الآن نغزوهم ولايغزوننا »[٣].

صلح الحديبية :[٤]

لم يقع بين الرسول وبين قريش واقعة هامة بعد غزوة الخندق ، فقد استنفدت قريش كل مجهودها من هذه الناحية وظل التوتر يسود علاقتها بالمسلمين ، وفى هذه الأثناء كانت الخصومة لاتزال قائمة بين المسلمين وبين يهود المدينة وقد استطاع المسلمون بعد قهرهم القرشيين فى واقعة الخندق ان يقهروا اليهود ويجلوهم عن المدينة .

(١) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٤٩ ـ ٢٤٠
(٢) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير جـ ٣ ص ١١٢
(٣) ابن الأثير : جـ ٢ ص ٩٦ .
(٤) الحديبية : هى طرف الحرم على تسعة أميال من مكة ابن سعد جـ ٣ ص ١٤٠ ، المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٨٣ .

ولما اطمأن الرسول إلى تفوق المسلمين على أعدائهم ، فكر فى دخوله مكة معتمراً . فأمر أصحابه بالسير إليها لأداء العمرة فلبوا طلبه فى ذى القعدة من سنة ٦ هـ وخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب وقد بلغ عددهم مايقرب من ألف وأربعمائة - ليس معهم سلاح إلا السيوف فى أغمادها ، وأحرم الرسول بالعمرة من ذى الحليفة(١) ولبى : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك ، لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك، لاشريك لك » واقتدى به سائر المسلمين ، فأحرموا بإحرامه ، وساق قوم منهم الهدى(٢) إظهاراً لغرضهم الدينى(٣).

لما بلغ أهل مكة خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اشتد بهم الذعر ودعوا الأحابيش وحلفاءهم من ثقيف للوقوف إلى جانبهم كما عهدوا إلى بعض رجالهم بمراقبة حركات المسلمين وأجمعوا على منع الرسول وصحبه من دخول مكة ومحاربتهم ، فخرج خالد بن الوليد على رأس فريق من المشركين للقاء المسلمين وأخذ يزحف بخيله حتى تمكن من مشاهدتهم ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم استطاع أن يسلك مع المسلمين طريقاً بعيداً عن عيون القرشيين . ومازال سائراً حتى وصل إلى مكان يقال له الحديبية اطمأن إلى الإقامة به(٤)

وبينما الرسول معسكراً بالحديبية ، أرسلت إليه قريش بعض رسلها ليحملوه على العدول عن دخول مكة ويبينوا له الخطر الذى سيلحق به إذا

---

(١) ذو الحليفة : تقع على مقربة من المدينة وبها آبار تسمى آبار على ، ومنها يحرم أهل المدينة إذا أرادوا الخروج للحج أو للعمره .
ابن فضل الله العمرى : مسالك الإبصار فى ممالك الأمصار جـ ١ ص ١٢١ - ١٢٢ .
(٢) الهدى . مايضحى به الحاج عند الكعبه .
(٣) ابن هشام : جـ ٢ ص ٣٥٥ - ٣٥٦ ، المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٣٧٥ - ٣٧٦
(٤) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٨٠ - ٢٨٤

ماحاول دخولها عنوة ، ومن بينهم عروة بن مسعود الثقفى الذى قال لقريش بعد مقابلته الرسول : « إنى جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه . وإنى والله مارأيت ملكا فى قومه مثل محمد فى أصحابه »[١].

رأى الرسول من ناحيته أن يفاوض قريش فى أمر دخوله مكة لأداء العمرة إيثار للمسالمة والمودة . فبعث عثمان بن عفان إلى أبى سفيان وأشراف قريش وقال له أخبرهم : « إنا لم نأت لقتال أحد وإنما جئنا زواراً لهذا البيت معظمين لحرمته معنا الهدى ننحره وننصرف »[٢]. فرفضوا السماح للرسول بدخول مكة ، ورحب أبان بن سعيد بن العاص بعثمان بن عفان وأجاره[٣].

وكانت قريش إذ ذاك قد بعثت فريقا من رجالها ليهاجموا المسلمين على غرة بالحديبية ، فظفر بهم محمد بن مسلمة مما دعاهم إلى إرسال نفر آخر من أصحابها ليعاودوا الاعتداء على المسلمين ، فوقف المسلمون فى وجوههم وأسروا بعض فرسانهم[٤].

لما لم يعد عثمان بن عفان من مكة بعد أن قضى فيها ثلاثة أيام ، ذاع بين المسلمين أنه قتل مع عشرة من المسلمين ـ كان الرسول قد أذنَ لهم بالذهاب إلى مكة لزيارة أهليهم[٥]. ، فوقف الرسول إثر ذلك يخطب قومه قائلا : « ان كان حقا ماسمعنا فلن نبرح الأرض حتى نناجز القوم ، البيعة ، البيعة أيها الناس » فتوافد المسلمون يبايعونه على محاربة قريش .

---

(١) ابن هشام : سيرة النبى ج ٣ ص ٣٦٢ .
(٢) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ج ٣ ص ٢٤١ ، الطبرى : ج ١ ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩
(٣) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٨٩ .
(٤) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٩٠ .
(٥) ابن هشام : سيرة النبى جـ ٣ ص ٣٦٤ .

وتعرف هذه البيعة ببيعة الرضوان . وقد نوه الله تعالى بشأنها فى سورة الفتح[١]، فقال تعالى : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) .

رأت قريش أن مناصبة المسلمين العداء وهم معسكرون على مقربة من مكة لايجديها نفعاً ، فأرسلت وفداً برئاسة سهيل بن عمرو ليفاوض الرسول فى الصلح ؛ فلما قدم عليه ، قال له : « يامحمد إن هذا الذى كان - من حبس أصحابك وماكان من قتال من قاتلك - لم يكن من رأى ذوى رأينا ، بل كنا له كارهين حين بلغنا ولم نعلم - وكان من سفهائنا ، فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أول مرة والذين أسرت آخر مرة » ، فبعث سهيل بن عمرو رسولا من قبله الى قريش يطلب منها إطلاق سراح عثمان بن عفان ومن معه من المسلمين ، فأجابت طلبه . ولما قدم عثمان بن عفان ورفاقه من المهاجرين على الرسول ، أعاد إلى قريش رجالها الذين أسروا[٢].

لما رأى سهيل بن عمرو مسارعة المسلمين إلى بيعة الرسول اشتد رعبه ، وعول على العودة إلى مكة ليخبر قريش بما شاهده بنفسه ، فأشار عليه أهل الرأى منهم بالصلح على أن يرجع الرسول عنهم عامة هذا ويعود فى العام المقبل ، فقدم سهيل بن عمرو على الرسول بالحديبية وأظهر له رغبة قومه فى مصالحته على أن يرجع عن مكة دون أن يزور البيت الحرام ، ويعود إليها فى العام التالى فيقضى بها ثلاثة أيام[٣]. فشاور الرسول أصحابه فيما عرضته عليه قريش ، فكرهوا إجابتها إلى ماطلبت ، لكن الرسول

---

(١) آية : ١٠ .
(٢) المقريزى إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٩٠ - ٢٩١ .
(٣) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٩٢ .

كان يرى الموافقة على ماطلبته قريش ، وأظهر بعض أصحابه تذمرهم من ذلك .

ولما تم الاتفاق على معاهدة الصلح بين الرسول والقرشيين ؛ ولم يبق إلا كتابة شروطها ، قام عمر بن الخطاب ، وقال للرسول : « ألست برسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ ، قال : بلى ، قال أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال : فعلام نعطى الدنيا فى ديننا ؟ فأجابه بقوله : أنا عبدالله ورسوله . لن أخالف أمره ولن يضيعنى »[1]. فعلم المسلمون أن الأمر ليس أمر مشورة ومفاوضة وإنما هو وحى من الله سبحانه وتعالى فتابوا إلى الله وأيدوا مافعله الرسول .

اتفق الرسول وسهيل بن عمرو فى كتاب الصلح على الشروط الآتية[2].

١ ـ أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين لمدة عشر سنين .

٢ ـ أن يرد الرسول من يأتيه من قريش مسلماً بدون إذن وليه ، ولاتلزم قريش برد من يأتى إليها من عند محمد .

٣ ـ من اراد الدخول فى عهد قريش فله ذلك ، ومن أراد الدخول فى عهد محمد من غير قريش جاز له ذلك .

٤ ـ أن يرجع الرسول هذا العام دون أن يؤدى العمرة ، فإذا كان العام القادم دخل مكة بعد أن تخرج منها قريش ، ليس معه الا سلاح المسافر .

وبعد أن تمت كتابة شروط الصلح ، أعلن الحاضرون من خزاعة دخولهم

(١) ابن هشام : سيرة النبى جـ ١ ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦ .
(٢) ابن هشام : سيرة النبى جـ ٣ ص ٣٦٦ ، المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٩٧ .

فى عهد محمد وعقده ، ثم قام الحاضرون من بنى بكر وأعلنوا دخولهم مع قريش فى عهدها وعقدها[١].

استاء المسلمون من صد المشركين لهم عن زيارة بيت الله الحرام وعودتهم إلى المدينة دون أن يؤدوا العمرة ، وظنوا أن النبى تساهل مع قريش حيث يجب أن يشتد . ولما دعاهم بعد أن فرغ من كتاب الصلح إلى القيام بالشعائر التى يقوم بها الحجاج والمعتمرون وهى : نحر الهدى وحلق شعر رءوسهم والتحلل من إحرامهم ، ولم يجبه أحد إلى ذلك فى بادىء الأمر لكنهم مالبثوا أن اقتدوا به حين شرع فى نحر هديه فسارعوا إلى هديهم ينحرونه ، ثم أمرهم الرسول بالرحيل إلى المدينة[٢]. وبينما هو فى طريقه إليها أنزل الله عليه سورة الفتح ؛ فتلا على أصحابه قوله تعالى : (إنا فتحنا لك فتحاً مبينا ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما وينصرك الله نصراً عزيزاً)

وقد سُر المسلمون بنزول هذه السورة وأقبلوا على الرسول يهنئونه ، واطمأنوا أن صلح الحديبية فتح مبين[٣].

إذا أنعمنا النظر فى صلح الحديبية نرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم آثر السلم على الحرب مع ماصار إليه المسلمون وقتئذ من المنعة والقوة والقدرة على الفتك بأعدائهم[٤]. كما نلحظ فى شروطه بعض التكافؤ ، ففى الشرط الأول نجد أن الهدنة لمدة عشر سنين بين الفريقين . لايعتدى أحدهما على الآخر ؛ وكذلك فى الشرط الثالث . نجد أن بعض القبائل دخل فى جانب قريش مثل بكر ، وبعضها دخل فى جانب النبى كخزاعة .

(١) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير جـ ٣ ص ١٤٢ .
(٢) ابن هشام : سيرة النبى جـ ٣ ص ٣٦٨ - ٣٦٩
(٣) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٣٠٢
(٤) جاد المولى : محمد المثل الكامل ص ٢٠٧

لكن هناك شرطان آخران . لا نلحظ فيهما هذا التكافؤ

أولهما : من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لايردونه عليه ؛ فقريش فى هذا الشرط تميزت عن المسلمين .

ثانيهما : أن يعود النبى فى عامه هذا إلى المدينة . فلا يدخل مكة إلا في العام القادم بعد أن تخرج منها قريش . فى هذا الشرط نجد أن المفاوض القرشى أظهر قوة قبيلته وسيطرتها على مكة .

على أن قبول الرسول هذين الشرطين لايعد تهاونا منه فى حقه أو استسلاماً أمام قوة قريش ، بل إنه قبلهما سياسة منه . فالشرط الذى يلزمه أن يرد من يأتى إليه من قريش مسلماً لن يصيبه منه أى ضرر . كما انه لن يضعف من قوة المسلمين . لأن الرسول أصبح لايعبأ بحضور بعض أفراد إليه من قريش بعد أن نازعته عدة سنوات ، ثم إنه من ناحية أخرى رأى أن يتفرغ لنشر الإسلام خارج الحجاز ، وإذا ماتم نجاحه فى هذا السبيل يوجه قوته لمحاربة قريش ويصبح من اليسير عليه إخضاع شوكتها . كذلك كان الرسول يرى أن المسلم الذى يلجأ إلى قريش ليس جديراً بأن يعود إلى صفوف المسلمين .

أما الشرط الذى يحتم على الرسول الرجوع إلى المدينة دون أن يؤدى العمرة . ففيه تضحية بسيطة ، لكن فى مقابل هذه التضحية استفاد الصلح لمدة عشر سنوات يتفرغ فيها لنشر الدعوة الإسلامية ، ويتفرغ فيها أيضاً للتخلص من اليهود الذين زاد نفوذهم فى بلاد الحجاز فى ذلك الوقت .

نهاية النزاع بين المسلمين فى المدينة والقرشيين فى مكة :

لما انتصر الرسول على اليهود فى خيبر فى السنة السابعة للهجرة وأبعد بذلك الخطر الذى كان يتهدد المدينة من قبلهم وصارت دولته الإسلامية ،

الناشئة فى أمن وطمأنينة ، أمر الرسول أصحابه الذين شهدوا الحديبية بالخروج معه إلى مكة ليعتمروا قضاء[١] لعمرتهم التى صدهم المشركون عنها[٢] ـ وكانت قريش قد أذنت له فى صلح الحديبية بأن يؤدى العمرة فى هذا العام ـ فلبوا دعوته ؛ ولم يتخلف عنه إلا الرجال الذين استشهدوا بخيبر والذين ماتوا ، كما سارع الى الخروج معه فريق آخر من المسلمين ، حتى بلغ عدد الخارجين بصحبة الرسول لأداء العمرة فى ذى القعدة من سنة ٧ هـ ألفين[٣] .

لما دخل المسلمون مكة ، نفذت قريش ماأخذته على نفسها ، فصعدت فى التلال حيث ضربت الخيام حتى لايقع مايعكر صفو العلاقات بين الفريقين غير أن جماعات منها وقفت عند دار الندوة تتطلع الى المسلمين أثناء طوافهم ببيت الله الحرام ، واتخذ المسلمون الحيطة لدرء أى خطر يتعرض له الرسول أثناء طوافه حول الكعبة وسعيه بين الصفا والمروة ؛ فقاموا على حراسته خشية أن يتعدى عليه أحد سكان مكة[٤] .

لبث المسلمون بمكة ثلاثة أيام ، أتموا خلالها فرائض العمرة ، وزار المهاجرون منهم دورهم التى تركوها ، ثم أمرهم الرسول بالعودة إلى المدينة فوصلوا إليها فى آخر سنة ٧ هـ[٥] ، وبعد قليل فرض عليهم الحج . وأصبح

---

(١) عرفت هذه العمرة بعمرة القضاء لأنها نائبة للعمرة السابقة التى لم يؤدها المسلمون كما يقال لها غزوة القضاء وعمرة الصلح ، وتعرف أيضا بعمرة القصاص لأن القرشيين صدوا الرسول فى ذى القعدة سنة ٦ هـ وهو من الأشهر الحرم ، فاقتص رسول الله منهم فدخل مكة فى ذى القعده سنه ٧ هـ (ابن هشام جـ ٣ ص ٤٢٤ والمقريزى امتاع الاسماع جـ ١ ص ٣٣٦) .

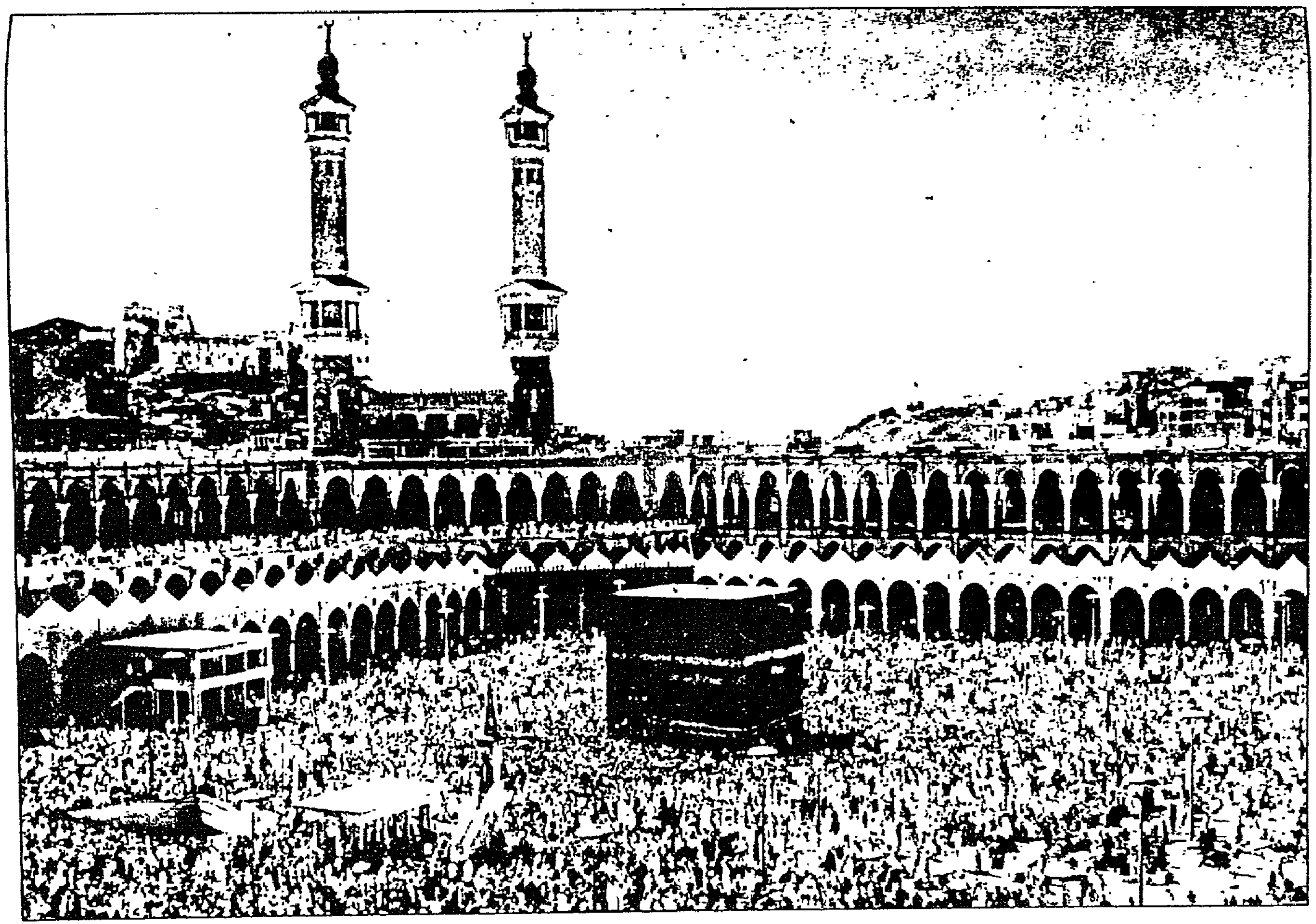
(٢) النبهانى : الانوار المحمدية من المواهب اللدنية ص ١٠٠ .

(٣) المقريزى : امتاع الأسماع جـ ١ ص ٣٣٦ . النبهانى الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص ١٠٠ .

(٤) المقريزى . امتاع الأسماع جـ ١ ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨ .

(٥) ابن هشام : سيرة النبى جـ ٣ ص ٤٣٦

المقريزى : امتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٥٤ ـ .



مكة المكرمة يتوسطها بيت الله الحرام

ركناً من أركان الشريعة الإسلامية

* * *

كان لاتخاذ المسلمين الكعبة قبلة لهم فى الصلاة فى السنة الثانية للهجرة[١] وفرض الحج عليهم فى السنة السابعة قيمة كبرة من حيث العلاقة بين مكة والمدينة . فهذان التشريعان يساعدان على تقريب مسافة الخلف بين المسلمين فى المدينة والقرشيين فى مكة التى تسيطر عليها قريش لأن مكة أصبحت مكاناً مقدساً عند المسلمين يفدون اليه لزيارة بيت الله الحرام الذى هو فى نفس الوقت قبلتهم فى الصلاة . ولايخفى علينا مايترتب على ذلك من نمو العلاقات بين الفريقين وحرص المسلمين على أن يكونوا فى أمن وطمأنينة إذا ماقدموا مكة لأداء فريضة الحج مما جعلهم يسارعون إلى فتحها فى السنة الثامنة للهجرة .

أخذت قريش بعد صلح الحديبية تغير نظرتها إلى النبى وتغير حكمها عليه ، وأصبحت ترى أنه قرشى على الرغم من العداوة بينها وبينه ، يجمعه وإياها نسب واحد ، وصارت تعجب فى نفسها بعلو شأنه ونجاحه السياسى مما حمل بعض رجالاتها كعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن أبى طلحة على الهجرة إلى المدينة ومبايعة الرسول على الإسلام[٢]. وفضلا

(١) كان الرسول صلى الله عليه وسلم قبل هجرته الى المدينة يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس فى صلاته ، فيستقبل وسط جدار الكعبة الممتد من الركن اليمانى الى الركن الجنوبى الشرقى وهو الذى فيه الحجر الأسود ، فلما هاجر الى المدينة ظل سته عشر شهراً يصلى الى بيت المقدس وكان يود ان يصرف الى الكعبة ، فصار اذا ماصلى يرفع وجهه الى السماء ويدعو الله سبحانه وتعالى ان تكون قبلته قبل البيت الحرام ، فنزلت عليه هذه الآية فى سورة البقرة » (قد ترى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها . فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، وان الذين اوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم وماالله بغافل عما يعملون)

راجع ماورد عن صرف القبلة عن بيت المقدس الى الكعبة فى « ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ج ٢ ص ٦ - ٩ » .

(٢) المقريزى : امتاع الأسماع جـ ١ ص٣٤١ .

عن ذلك فإنها أيقنت من عجزها عن القضاء على نفوذه ودعوته بعد أن جربت معه كل وسائل العنف من اصطهاد ومحاربة وتأليب قبائل العرب عليه .

أما الرسول فكان واثقاً من تفوقه على قريش . فأخذ يعاملها معاملة من يشعر بقوته ، ذلك أنه قد اتفق معها في صلح الحديبية على أن يرد اليها من جاء بدون إذن وليه ؛ فصار يرد من جاءه من الرجال مسلما . ولما جاءه نسوة مؤمنات ، أنزل الله عز وجل (يأايها الذين امنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ، فامتحنوهن الله أعلم بايمانهن فإن علمتموهن مؤمنات ، فلا ترجعوهن إلى الكفار لاهن حل لهم ولاهم يحلون لهن وآتوهم ماأنفقوا ولاجناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ، ولاتمسكوا بعصم الكوافر واسئلوا ماأنفقتم وليسألوا ماأنفقوا ذلك حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم[١]) .

فنهى الرسول عن رد النساء المسلمات حين طلبت صنه قريش ردهن تنفيذاً لشروط الصلح[٢] واظهر استعداده لدفع بعض الأموال لأولياء هؤلاء النساء أزواجاً كانوا أو غير أزواج فإذا كان زوجاً أعاد له الصداق ، وإذا لم يكن كذلك أدى له بعض المال[٣] . وقد أقام هذا الحكم على أساس شرعي . وهو أن المرأة المسلمة لا يجوز أن تتزوج غير مسلم . وكان لبعض المسلمين زوجات وثنيات ، فأمرهم الرسول أن يطلقوا هؤلاء ، وأصبح ذلك قانوناً شرعياً ثابتاً ؛ فالمسلم لايجوز له أن يتزوج كافرة ، والمسلمة لايجوز لها أن تتزوج غير مسلم .

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعمل على انتهاز الفرص لتصفية العلاقة

(١) سورة الممتحنة : آية ١٠ .
(٢) الطبرى : جـ ٢ ص ٢٨٠
(٣) ابن هشام : سيرة النبى جـ ٣ ص ٣٧٦ .

بينه وبين قريش وإتمام النصر عليها . فلما بلغه أنها نقضت صلح الحديبية بإمدادها بعض قبائل بني بكر بالرجال والسلاح في الحرب التي قامت بينها وبين حليفته خزاعة ، عول على انتهاز هذه الفرصة للقضاء على مناوأتها وتحقيق رغبته في دخول مكة وضمها الى الكتلة الاسلامية ، فوعد رسول خزاعة بالمساعدة[١]

على أن قريش مالبثت أن ندمت على معاونتها بني بكر ورأت أن ما فعلته نقض صريح للعهد الذى بينهم وبين الرسول ، ثم استقر رأيهم على أن يبعثوا أبا سفيان بن حرب إلى المدينة ليفاوض الرسول في تجديد معاهدة الحديبية ومد أجلها ، فقدم أبو سفيان ضارعاً متذللا وحاول مقابلة الرسول ، فأعرض عنه ورفض طلبه وقال : « نحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبية لانغير ولانبدل »[٢] . فرأى أبو سفيان أن يجدد مسعاه لدى أبي بكر وعمر وعلي - وهم من كبار الصحابة لعل النبي يقبل رجاءهم ، فأبوا أن يحدثوا الرسول في شيء لايوافق عليه ، فعاد أبو سفيان من حيث أتى[٣] .

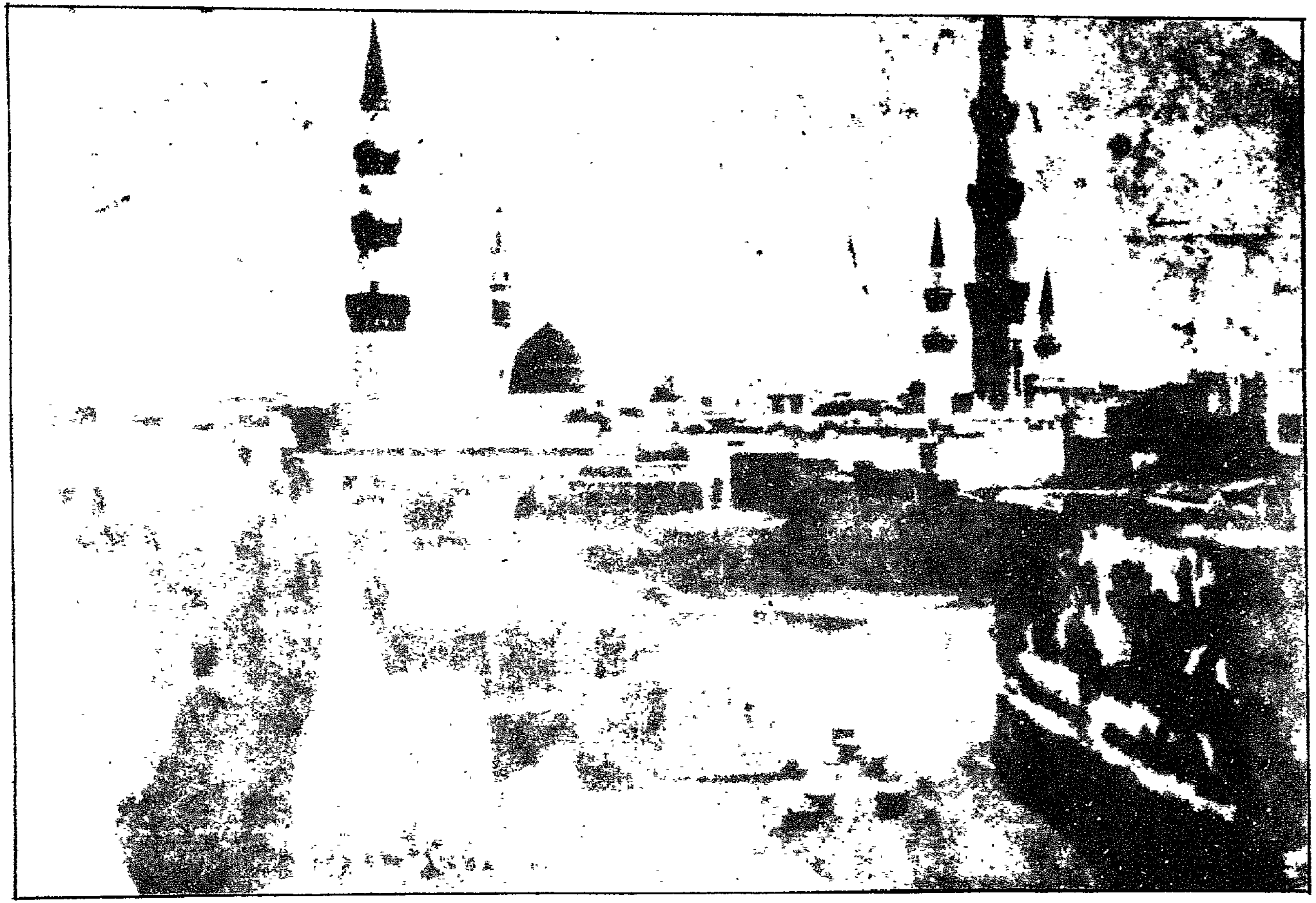
كان الرسول صلى الله عليه وسلم يرى إذ ذاك أن إخضاع قريش أصبح أمراً ميسوراً ، فأرسل إلى أهل البادية وإلى من حوله من المسلمين يقول : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليحضر رمضان بالمدينة » ، وبعث رسلا إلى القبائل فوافاه بالمدينة قبائل : أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع ولحق به قبائل أخرى في الطريق . وبلغ عدد الذين اجتمعوا إليه من المسلمين في النصف الأول من شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة عشرة آلاف ، سار بهم قاصداً مكة[٤] .

(١) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير جـ ٣ ص ١٨١ .
(٢) المقريزى : امتاع الأسماع جـ ١ ص ٣٥٨
(٣) المقريزى : امتاع الأسماع جـ ١ ص ٣٥٩
(٤) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير جـ ٣ ص ١٨٣ .

وقعت فى منتصف الطريق أثناء مسير النبى الى مكة عدة حوادث تدلنا على أنه كان هناك رغبة من جانب قريش فى الاستسلام بطريقة لاتمس كرامتها ومكانتها ، من ذلك أن الرسول لقى عمه العباس بن عبدالمطلب مهاجراً بعياله[١]، فأسلم بين يديه[٢] وبعد مرحلة أخرى من مراحل الطريق ، لقى الرسول رجلين آخرين من كبار القرشيين هما أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ، وعبدالله بن المغيرة يريدان الإسلام ، وأولهما ابن عم النبى والثانى ابن عمته ، فالتمسا مقابلة الرسول ، فأعرض عنهما فى بادىء الأمر ولما ألحا عليه واعتذرا له أذن لهما بمقابلته وصفح عنهما[٣].

هناك حادثة أخرى وقعت فى الطريق ترينا رغبة سادة قريش فى التوسط لأنفسهم وبلدهم لكى ينالوا أماناً من جيش المسلمين . فقد سار العباس بعد مقابلته الرسول يبحث عن رجل يبعثه إلى قريش ليأخذوا حذرهم ويبادروا بالاستسلام فلقى أبو سفيان بن حرب الذى خرج من مكة هائما على وجهه مع بعض أصحابه سعياً وراء مقابلة النبى ليأخذ منه أماناً للقرشيين ، لكنه لم يحظ بهذا الشرف إلا بعد شفاعة العباس ، ولما سمح النبى بمقابلته أسلم بين يديه ، ومنحه الرسول أمانا يتضمن أن « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن »[٤]. فعاد أبو سفيان الى مكة داعياً قريش إلى الإسلام ، وصار ينادى بها قائلا : « يامعشر قريش . ويحكم إنه قد جاء مالا قبل لكم به : هذا محمد فى عشرة آلاف ، عليهم الحديد فأسلموا تسلموا[٥] » .

(١) ابن هشام : سيرة النبى جـ ١ ص ١٨ .
(٢) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٣٦٧ .
(٣) ابن هشام : سيرة النبى جـ ٤ ص ١٨ ، ابن الأثير ، جـ ٢ ص ٩٢ .
(٤) ابن هشام : سيرة النبى جـ ٤ ص ٢٠ ـ ٢٢
(٥) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص٣١١ ـ ٣٢٠ و ٣٧٦ .



المدينة المنورة ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم

لما اقترب الرسول من مكة ، اتخذ كل مالديه من أهبة وحذر ، على الرغم من اعتناق بعض أشراف قريش الإسلام . فقسم جيشه أربعة أقسام جعل كل قسم منها يدخل من جهة معينة ليقضي على مايصادفه من مقاومة[١] ولم يقع قتال يذكر بين الفريقين إلا مناوشات بسيطة بين القوة الإسلامية التى دخلت مكه من أسفلها - وعلى رأسها خالد بن الوليد - ، وبين فريق من القرشيين وأحابيشهم[٢] فى مكان يقال له الخندمة ،[٣] ولكن خالدا مالبث أن أخضعهم ، وانتهت هذه المناوشات بدخول المسلمين مكة . وتوجه رسول الله إلى الكعبة وطاف بها سبع مرات وشكر الله على هذا الفتح وحطم ماحولها من الأصنام . ثم جاءته قريش وأسلموا بين يديه وبايعوه على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا .

عامل الرسول القرشيين معاملة تنطوى على كثير من التسامح ، فأصدر عفواً عاماً عنهم بقوله[٤] : « أنتم الطلقاء ، مثلى ومثلكم كما قال يوسف لإخوته (لاتثرب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) لذلك سمى أهل مكة الطلقاء[٥].

كما نهى الرسول عن الهجرة بعد فتحه مكة ، وأبقى سقاية الحجاج فى يد العباس بن عبدالمطلب وسدانة الكعبة فى يد عثمان بن طلحة[٦].

كذلك أعلن الرسول حرمة مكة فى اليوم التالى لدخوله هذه المدينة فى خطبة ألقاها عند باب الكعبة ، فقال : [٧]« أيها الناس ، إن الله حرم مكة

(١) ابن هشام : جـ٤ ص ٢٥ - ٢٦ ، اليعقوبى ، جـ ٢ ص ٤٤ .
(٢) الطبرى : جـ ٢ ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .
(٣) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير جـ ٢ ص ١٨٣ .
(٤) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٣٨٢ - ٣٨٦ .
(٥) ابن الأثير : ح ٢ ص٩٦ .
(٦) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص٣٨٨ .
(٧) ابن هشام : جـ ٤ ص٣٥ - ٣٦ ، المقريزى إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٣٨٩ .

يوم خلق السموات والأرض ، ويوم خلق الشمس والقمر ، ووضع هذين الجبلين ، فهى حرام إلى يوم القيامة ؛ لايحل لمؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً ولايعضد(١) فيها شجراً ، لم تحل لأحد كان قبلى ، ولاتحل لأحد يكون بعدى ، ولم تحل لى إلا ساعة من نهار ، ثم رجعت حرمتها بالأمس فليبلغ شاهدكم غائبكم » .

أرسل النبى غداة الفتح بعض سراياه إلى ظواهر مكة وضواحيها لدعوة أهلها إلى الإسلام والقضاء على معالم الوثنية فيها ، فبعث هشام بن العاص إلى يلملم(٢)، وخالد بن سعيد بن العاص إلى عرنة(٣)، وخالد بن الوليد إلى العزى بنخلة ، فلما انتهى إليها هدمها ، وأنفذ عمرو بن العاص إلى سواع صنم هذيل فهدمه ، ونادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله وبرسوله فلا يدعن فى بيته صنما إلا كسره أو حرقه وثمنه حرام » . وكانت بيوت القرشيين فى مكة لاتخلو من الأصنام ، فسارع المسلمون إلى كسرها والتخلص منها(٤).

موقف قبيلتى هوازن وثقيف من الرسول :

كان لقريش حلفاء ظاهروها فى حروبها مع الرسول ، نخص بالذكر منهم : هوازن وغطفان وثقيف التى كانت تربطها بقريش بعض العلاقات . فلما قضى الرسول على قريش ومقاومتها ونظامها القديم القائم على الوثنية ، وأصبح حلفاؤها هوازن وثقيف وغيرهم من القبائل العربية التى تقيم على

---

(١) يعضد ـ يقطع .

(٢) يلملم : موضع ، يقع الى الجنوب من مكة ؛ وهو ميقات أهل اليمن ، فمنه يحرمون اذا أرادوا الحج او العمرة .
« ابن فضل الله العمرى : مسالك الإبصار فى ممالك الأمطار جـ ١ ص ١٢١ ـ ١٢٢ .

(٣) عرنة : واد بحذاء عرفات ، ياقوت ، معجم البلدان جـ٦ ص ١٦٩ » .

(٤) ابن سعيد : كتاب الطبقات الكبير جـ ٣ ص ١٩٣ ـ ١٩٥ ، المقريزى ، امتاع الأسماع جـ ١ ص ٣٩٨ ، النبهانى ، الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص ١٥٥ .

مقربة من مكة معزولين أمامه . رأت هذه القبائل ان الرسول لابد أن يفكر فى مهاجمتها . لذلك صممت على محاربته قبل أن يهاجمها . وتجمع من هوازن وثقيف عدد كبير وساروا يريدون مكة تحت قيادة مالك بن عوف النضرى سيد هوازن وساقوا معهم على عادة العرب فى الجاهلية أموالهم ونساءهم ، ليكون ذلك حافزاً لهم على الاستبسال فى الحرب ، كما خرج معهم الشاعر المعمر دريد بن الصمة لينتفعوا بخبرته وتجاريبه ، غير أنهم لم ينتصحوا بنصيحته حين اعترض ـ بعد نزولهم بأوطاس ـ على أخذهم أموالهم ونساءهم وأبناءهم فى الوقت الذى يتأهبون فيه للقتال[١].

لما علم الرسول بتجمع هذه القبائل لمحاربته ، خرج من فوره لصد خطرهم على رأس الجيش الذى قدم به من المدينة لغزو مكة ، وانضم إليه ألفان من القرشيين الذين اعتنقوا الإسلام بعد الفتح ، كان من بينهم أبو سفيان بن حرب[٢].

كانت المنطقة التى تقع شرق مكة حيث دارت المعركة بين المسلمين وقبائل هوازن وثقيف جبلية وتتخللها أودية وشعاب ، فلما انتهى الرسول إلى حنين[٣] فى ١٠ شوال سنة ٨هـ عسكر بها ، فخال المسلمين شيء من الزهو والإعجاب لكثرة عددهم . أما هوازن وثقيف فكمنوا فى شعاب الوادى وجوانبه ومضايقه وتهيأوا للحرب . ولما سار المسلمون لمهاجمتهم فى الصباح الباكر والضوء لايزال مختلطاً بالظلام لم يعثروا لهم على أثر . غير أنهم سرعان مافزعوا واختل نظامهم حين خرج إليهم العدو وانقض عليهم من كل ناحية ، ففر كثير منهم وبخاصة الذين أسلموا حديثاً من قريش[٤].

(١) المقريزى : امتاع الأسماع : جـ ١ ص ٤٠١ ـ ٤٠٢ .
(٢) ابن هشام : سيرة النبى : جـ ٤ ص ٦٨ .
(٣) حنين ، واد بينه وبين مكة ثلاثة أميال بالقرب من الطائف ، المقريزى : امتاع الأسماع . جـ ١ ص ٤٠١ .
(٤) ابن هشام : سيرة النبى جـ ٤ ص ٧١ المقريزى . امتاع الأسماع جـ ١ ص ٤٠٦ .

وأنزل الله تعالى فى يوم حنين هذه الآية فى سورة التوبة (آية ٢٦) : (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ، فلن تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين) .

رأى الرسول أن يعيد تنظيم صفوف المسلمين بعدما وهنت عزيمتهم فانحاز ذات اليمين مع نفر ثبتوا معه من المهاجرين والأنصار وأهل بيته ، وأخذ يناديهم ، فأقبلوا إليه والتفوا حوله[١]. واستؤنف القتال ، فأبلى المسلمون بلاءً حسنا فى مقاتلة هوازن وثقيف وأوقعوا بهم الهزيمة ، فولوا هاربين بدورهم ، وسار بعضهمن إلى الطائف وفريق آخر الى نخلة ، وتوجه قوم إلى أوطاس تاركين أموالهم وذراريهم غنيمة للمسلمين ، فوجه إليهم الرسول بعض صحابته يتعقبونهم ليقضوا على مقاومتهم[٢].

لم يشأ النبى أن يشغل المسلمين بالغنائم ، فأمر بجمعها ووضعها فى مكان يقال له الجعرانة[٣] حتى يفرغ من أمر العدو ، ثم تأهب للمسير الى الطائف لمطاردة فلول ثقيف الذين لجأوا إليها وكانت هذه المدينة إذ ذاك محصنة ويحيط بها سور يحول دون اقتحامها ، فنزل الرسول مع أصحابه على مقربة من حصن الطائف[٤]، فاعتدى أهل هذه المدينة بنبالهم على المسلمين مما اضطر الرسول الى أن يعسكر بمكان آخر يأمن فيه على أصحابه من رمى أهل الطائف[٥] ونادى مناديه أثناء حصاره هذه المدينة بأن من يأتى إليه من عبيدها يصبح حراً ، فنزل عليه ثلاثة وعشرون رجلا ، فأعتقهم ووكل أمر النفقة عليهم إلى بعض المسلمين . كما أمر بتعليمهم القرآن والسنن ، فشق

(١) ابن هشام : جـ ٣ ص ٧٢ - ٧٤ ، الطبرى جـ ٢ ص ٣٤٧ .
(٢) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير جـ ٣ ص ٢٠١ - ٢٠٢ ، الطبرى جـ ٢ ص ٣٥١ .
(٣) الجعرانة : تقع بين الطائف ومكة وهى الى مكة أقرب ، ياقوت ، معجم البلدان جـ ٣ ص ١٠٩ .
(٤) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٤١٦ .
(٥) الطبرى : جـ ٢ ص ٣٥٤ ، النبهانى : الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص ٢١١ .

ذلك على أهل الطائف[١].

ظل الرسول يحاصر الطائف مايقرب من حمسة عشر يوماً ، ولما حل شهر ذى القعدة ، وهو من الأشهر الحرم ـ رفع عنها الحصار وانصرف عائداً إلى الجعرانة ليقسم سبى أهل حنين وغنائمهم[٢]، فوصل اليها فى اليوم الخامس من هذا الشهر[٣].

قدم على الرسول أثناء إقامته بالجعرانة وفد هوازن وأخبروه بإسلامهم وإسلام قبيلتهم وتوسلوا اليه أن يرد عليهم ذراريهم وأموالهم ، ولم يفت هذا الوفد أن يحدث الرسول عن الصلة الوثيقة التى تربطه بهوازن ، فقد قضى أيام الطفولة بين قبيلتهم حيث أرضعته السيدة حليمة ـ وهى من هوازن ـ فقالوا له : « يارسول الله إنا أصل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك فامنن علينا ، من الله عليك إنما فى هده الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك[٤]» .

كان لهذا الحديث أثره فى نفس الرسول فخيَّرهم بين أخذ السبى أو الأموال فقالوا له : « يارسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا ، بل ترد علينا نساءنا وأبناءنا فهم أحب الينا[٥]» .

على أن النبى لم ير مبرراً للاعتداء على حق جيشه فى الغنيمة وعول على أن يتصرف فى حقه الخاص وحق أهل بيته ، فقال لوفد هوازن . « أما ماكان لى ولبنى عبدالمطلب فهو لكم » ، فاقتدى به المهاجرون والأنصار ، وأبى بعض الأعراب النزول عن نصيبهم فى السبى « فقام الرسول وألقى خطا.. على أصحابه

(١) ابن هشام : جـ٤ ص١٣٠ ، ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير جـ ٣ ص ١٢١ .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٦٧ .
(٣) المقريزى : إمتاع لأسماع جـ ١ ص ٤٢٠ .
(٤) ابن هشام : ح ٤ ص ١٤٣ ، المقريزى : امتاع الأسماع جـ ١ ص ٤٢٦ ـ ٤٢٧ .
(٥) ابن هشام : جـ ٤ ص ١٣٥ .

وعد فيها الذين يخلون سبيل ماعندهم من السبى بنصيب مضاعف فى أول فىء يفيئه الله عليه فقال : إن هؤلاء القوم جاءوا مسلمين ، وقد كنت استأنيت بهم ، فخيرهم بين النساء والأبناء والأموال ، فلم يعدلوا بالنساء والأموال شيئا ، فمن كان عنده منهم شيء فطابت نفسه أن يرده فسبيل ذلك ، ومن أبى منكم وتمسك بحقه فليرد عليهم ولكن ذلك فرض علينا ست فرائض من أول ما يفىء علينا به » ، فقالوا له يارسول الله ، رضينا وسلمنا . ومالبثوا أن ردوا على هوازن نساءهم وأبناءهم[١].

أما الأموال التى غنمها المسلمون من هوازن فقسمها الرسول على المؤلفة قلوبهم من كبار القرشيين وغيرهم من العرب الذين أسلموا حديثا ، ولم يعط الأنصار شيئاً منها مما جعلهم يغضبون فى أنفسهم ، وقال بعضهم لبعض : « لقى والله رسول الله قومه » ، ولما بلغ النبى حديثهم ، دعاهم ليزيل من نفوسهم الغضب والخوف ، وقال لهم : « يامعشر الأنصار ، مامقالة بلغتنى عنكم وجدة وجدتموها فى أنفسكم ، ألم آتكم ضلالا فهداكم الله وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم . . قالوا : بلى . . فقال رسول الله : وجدتم فى أنفسكم يامعشر الأنصار فى شيء من الدنيا تألفت به قوما أسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم . أفلا ترضون يامعشر الأنصار أن تذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم ، والذى نفسى بيده ، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار » . . . وختم حديثه بقوله : « اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » فقال الأنصار : رضينا برسول الله قسما وحظا[٢]، وبذلك هدأت نفوسهم .

---

(١) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير جـ ٣ ص ٢٠٤ ، المقريزى . امتاع الأسماع جـ ١ ص . ٤٢٨ - ٤٢٩ .

(٢) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٤٣٢ .

رأى الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن ينصرف مع أصحابه إلى المدينة أن يولى على مكة عتّاب بن أسيد لينظم أمور المسلمين بها ، وكان قد عينه قبل ذلك أميراً على الذين تخلفوا عنه بمكة حين خرج لمحاربة قبائل هوازن وثقيف ، كما ترك معه معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعرى ليعلما الناس القرآن ويفقهاهم فى الدين(١).

لم تسارع قبيلة ثقيف إلى الدخول فى الإسلام كما فعلت حليفتها هوازن بل احتفظت بوثنيتها وتملكها شيء من الزهو حين انصرف جيش المسلمين دون أن يفتح بلدهم .ولكن بعض زعمائها مالبثوا أن وقفوا على حقيقة الحال فى جزيرة العرب ورأو أن المسلمين أصبحوا بها قوة كبيرة ، وأن من مصلحتهم الدخول فى الإسلام ، ومن هؤلاء عروة بن مسعود الثقفى الذى لحق بالرسول فى المدينة وأسلم واستأذنه فى العودة إلى بلده لتحويل عشيرته إلى الإسلام . فلما قدم الطائف أعلن نبذه عبادة الأصنام ودعا الناس الى الإسلام ، وبينما كان يقوم بنشر دعوته إذا بسهم يصيب منه مقتلا(٢)، فمات وهو يحمد الله على أن وهب له شرف الاستشهاد(٣).

ولما أيقن سادات ثقيف أنه لاطاقة لهم بحرب من حولهم من العرب الذين أسلموا ، استقر رأيهم على أن يبعثوا إلى الرسول بالمدينة وفداً برياسة عبد ياليل ابن عمرو بن عمير ليعرض عليه صلح ثقيف معه واتفاقهم على الدخول فى الإسلام ، وكان من بين أعضاء هذا الوفد اثنان من الأحلاف هما الحكم بن عمرو بن وهب بن معتب ، وشرحبيل بن غيلان بن سلمة بن معتب وثلاثة من بنى مالك ، هم عثمان بن أبى العاص بن بشر بن عبد دهمان ،

(١) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٤٣٢
(٢) ابن هشام : جـ ٤ ص١٩٤ ، ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ج ٢ ص ٧٦ .
(٣) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص٤١ .

وأوس بن عوف ، ونمير بن خرشة بن ربيعة[١].

لما دنا وفد ثقيف من المدينة ، قابلهم المغيرة بن شعبة ، وسار مسرعاً إلى الرسول ليبشره بقدومهم ، فلقيه أبو بكر وقال له : « أقسمت عليك لاتسبقنى الى رسول الله حتى أكون أنا الذى أحدثه » ، فأجاب المغيرة طلبه ، وأخبر أبو بكر الرسول بوصول وفد ثقيف ، فأمر لهم الرسول بثلاث خيمات من حرير ، ضربن فى مسجده[٢] وصار يجرى لهم الضيافة فى دار المغيرة[٣]. وكان الرسول يأتى إليهم كل ليلة بعد العشاء فيحدثهم ويرغبهم فى الإسلام[٤].

وعلى الرغم مما أظهره وفد ثقيف من استعدادهم للدخول فى الإسلام ، فإنهم طلبوا من الرسول أن يدع لهم اللات لايهدمها ، فأبى وعهد إلى أبى سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة بهدمها ، كما سألوه أن يعفيهم من الصلاة وأن لايكسروا أوثانهم بأيديهم ، فقال الرسول : أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه ، وأما الصلاة فإنه لاخير فى دين لاصلاة فيه[٥].

كذلك سأل وفد ثقيف الرسول أن يحرم لهم وجًّا[٦]، فكتب لهم هذا الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد النبى رسول الله إلى المؤمنين ، إن عضاة[٧] وج وصيده لايعضد[٨]، فمن وجد يفعل شيئاً من ذلك فإنه

---

(١) ابن هشام : جـ ٤ ص ١٦٥ ، المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٤٨٩ - ٤٩٠ .

(٢) ذكر ابن سعد . كتاب الطبقات الكبير جـ ٢ ص ٨٨ ، أن الأحلاف من ثقيف نزلوا على المغيرة بن شعيبة فأكرمهم ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر بأن يضرب لأعضاء هذا الوفد من بنى مالك قبة فى المسجد .

(٣) المقريزى : امتاع الأسماع جـ ١ ص ٤٩٠ .

(٤) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير جـ ٢ ص ٧٨

(٥) ابن هشام : جـ ٤ ص ١٩٧ ، الطبرى ، جـ ١ ص ٣٦٥ .

(٦) حرم وجا : أى أعلن حرمة وج وهو اسم للطائف موطن قبيلة ثقيف « حاشيه رقم ٢ المقريزى » امتاع الأسماع : جـ ١ ص ٤٩٣

(٧) عضاة : شجر له شوك

(٨) يعضد : يقطع . حاشية رقم ١ و ٢ - ابن هشام جـ ٤ ص ٢٠

يجلد وتنزع ثيابه ، فإن تعدى ذلك فإنه يأخذ فيبلغ به النبى محمدا ، وإن هذا أمر النبى محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) » وكتب خالد بن سعيد بن العاص بأمر الرسول محمد بن عبدالله ، فلا يتعده أحد فيظلم نفسه فيما أمره به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم »[١].

أقبل وفد ثقيف على تعلم شرائع الإسلام بعد أن أفهمهم الرسول بأن الدخول فى الدين الإسلامى يستلزم اتباع جميع أحكامه ، ثم وقع اختياره على عثمان بن أبى العاص الثقفى ليكون أميراً عليهم مع أنه أحدثهم سنا ، لما رأى من حرصه على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن ، وقال : « اتخذ مؤذناً لايأخذ على أذانه أجراً »[٢]

خرج وفد ثقيف من المدينة ـ بعد أن تم إسلامهم ـ قاصدين بلدهم ، لينشروا الدعوة الإسلامية بين قومهم ، وبعث الرسول معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ليقوما بهدم اللات ، فلما بلغوا الطائف ، أراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان ، فأبى عليه ذلك وقال له : ادخل أنت على قومك ، ثم شرع المغيرة فى هدم اللات وقام قومه بحمايته خشية أن يرمى أو يصاب كما أصيب عروة بن مسعود من قبل[٣].

على أن أهل الطائف الذين حرصوا على التمسك بوثنيتهم سرعان مادخلوا فى دين الله وأصبحوا بعد إسلامهم من أخلص العرب للدين الإسلامى وأشدهم حرصاً على الذود عنه[٤]، وقد عبر المغيرة بن شعبة عن تمسك ثقيف بالإسلام بقوله : فدخلوا فى الإسلام ، فلا أعلم قوماً من العرب بنى أب ولاقبيلة ، كانوا أصح إسلاماً ولا أبعد أن يوجد فيهم غش الله ولكتابه منهم[٥].

(١) ابن هشام : جـ ٤ ص٢٠٠ ، ابن سعد . الطبقات الكبير جـ ٢ ص ٤٩
(٢) ابن هشام : جـ ٨ ص ١٩٧ ، ابن الأثير جـ ٢ ص ١٠٩ .
(٣) ابن هشام : جـ ٤ ص١٩٨ ، الطبرى جـ ٣ ص ٣٦٦ .
(٤) حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام السياسى جـ ١ ص ١١٨ .
(٥) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير جـ ٢ ص ٨٨ .

٣ ـ موقف الرسول من يهود الحجاز

كان اليهود قبل ظهور الإسلام قد احتلوا أخصب بقاع الحجاز واستغلوها فى الزراعة والصناعة والتجارة ، وقد أدى استعمارهم تلك البقاع واعتدادهم بأنفسهم ودينهم إلى كراهة العرب لهم ورغبتهم فى إخراجهم من الحجاز ، ونلحظ ذلك بصفة خاصة فى يثرب حيث كان الأوس والخزرج يبذلون جهدهم للحلول محل اليهود فى أراضيهم الخصبة ، فلما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حرص على تحقيق أحد أمرين : إما أن يجتذب اليهود المقيمين بها إلى الإسلام أو يكتسب صداقتهم وإخلاصهم مع بقائهم على دينهم ، وتحقيقاً لهذه الغاية ، كتب كتاباً بين فيه مالهم من حقوق وماعليهم من واجبات ، غير أنهم لم يدركوا حقيقة موقفهم ، فصاروا فى عداوة مع الرسول على غير هدى ، وأخذوا يصرحون بالشك فى رسالته لالشىء سوى انه عربى والنبوة فى نظرهم مقصورة عليهم ، ولأنه أيضاً بعث فى الحجاز والنبوة فى رأيهم إنما تكون فى الشام موطن الأنبياء .

كذلك عمل اليهود على إثارة النزاع بين أصحاب النبى وخاصة أهل المدينة ، فأخذوا يذكرونهم بالانتصارات القديمة والحروب التى كانت بين الأوس والخزرج وعلى الأخص « يوم بعاث » الذى انتصرت فيه الأوس وما إلى ذلك من طرق التفرقة ، كما مالوا ناحية قريش حين وقعت الحرب بينها وبين الرسول ، وقد ظهر واضحاً عقب واقعة بدر ؛ إذ قام شعراء من اليهود يرثون قتلى قريش ويعرضون بالمسلمين .

* * *

لم يكن اليهود فى الحجاز متحدين ، وليس بينهم رابطة سياسية تجمعهم ،

بل كانوا قبائل متفرقة ، تعيش كل منها فى حدود نظامها . فلما أظهروا عداءهم للمسلمين لم يكونوا جبهة واحدة للوقوف أمامهم ، فحاصرهم الرسول قبيلة بعد قبيلة وأجلاهم عن المدينة ، ثم أخذ يتتبع حركاتهم بعد أن اجتمع شملهم بخيبر ، فسار إليهم وأضعف شوكتهم .

كانت قبيلة بنى قينقاع أول من استهدف من يهود المدينة لمقاومة المسلمين وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد جعل بينه وبينهم أماناً وشرط عليهم شروطاً ، منها : ألا يظاهروا عليه عدواً فلما قدم من بدر ، أظهر بنو قينقاع البغى والحسد ونقضوا العهد الذى عقده معهم[1] ، فأنزل الله على نبيه فى سورة الأنفال (آية ٥٨) (وإما تخافن من قوم خيانة ، فانبذ إليهم على سواء إن الله لايحب الخائنين) فجمعهم الرسول بسوق بنى قينقاع وقال : « يامعشر يهود . أسلموا قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قريش ، فو الله إنكم لتعلمون أنى رسول الله تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم » ، فقالوا : يامحمد ، لايغرنك من لقيت ، إنك قهرت قوماً غماراً ، وإنا والله أصحاب الحرب ، ولئن قاتلتنا لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا »[2].

لم يكن لبنى قينقاع حصون ولامعاقل . وانما كانوا تجاراً وصاغة ، وهم حلفاء لعبدالله بن أبى بن سلول . فسار إليهم الرسول وحاصرهم خمس عشرة ليلة حتى اضطروا إلى النزول على حكمه الذى تضمن أن تكون أموالهم غنيمة له ، وتكون النساء والذرية لهم ، ثم أخلى سبيلهم بعد أن شفع فيه عبدالله ابن أبى ، وأمرهم بالجلاء عن المدينة ، فساروا صوب شمال الحجاز حتى نزلوا بأذرعات[3] بنسائهم وذراريهم وقسم الرسول ماغنمه منهم على المسلمين[4].

(١) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير جـ ٣ ص ٦٨ ، المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ٢ ص ١٠٤

(٢) ابن هشام : جـ ٢ ص ٤٢٦ ، المقريزى ، امتاع الأسماع جـ ١ ص ١٠٤ .

(٣) أذرعات : مدينة بأطراف الشام قبل الحجاز

(٤) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير جـ ٣ ص ٦٨ ، المقريزى ، امتاع الأسماع جـ ١ ص ١٠٥

كذلك توترت العلاقة بين قبيلة بنى النضير وبين الرسول بعد واقعة أحد ، ويرجع السبب المباشر فى ذلك إلى ماروى من أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد بعث المنذر بن عمرو فى سبعين رجلا من الأنصار يعرفون بالقراء ليدعوا أهل نجد إلى الإسلام[١]، فساروا من المدينة حتى نزلوا بئر معونة[٢]، وأنفذوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل ، فلما قدم عليه لم يقرأ كتابه وقتله ، ثم استعان بقبائل بنى سليم فى مقاتلة القراء ، فقاتلوهم ، ولم ينج منهم إلا عمرو بن أمية الضمرى[٣]، وبينما كان هذا الرجل عائدا إلى المدينة لقى رجلين من بنى عامر فقتلهما ـ وكان الرسول قد عقد لهما أماناً وجواراً ـ ولما علم الرسول بذلك قال لعمرو ابن أمية : بئس ماصنعت ، قتلت رجلين قد كان لهما منى أمان وجوار[٤]، وبعث عامر بن الطفيل الى الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب دية هذين الرجلين العامريين[٥]، ثم خرج الرسول ومعه بعض أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى إلى بنى النضير يستعينهم فى ديتهما لأن بنى النضير كانوا حلفاء بنى عامر ، فوعدوه بإعانته على دفع الدية . ثم خلا بعضهم إلى بعض وتآمروا على التخلص منه وذلك بإلقاء حجر عليه من فوق البيت الذى كان يجلس تحته ، غير أن الرسول سرعان مافطن إلى هذه المؤامرة ؛ فقام

(١) النبهانى . الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص ٧٩ .

(٢) بئر معونة : ماء لبنى عامر بن صعصعة بين مكة وغطفان ، المقريزى ، امتاع الأسماع جـ ١ ص ١٧٠ » .

(٣) المقريزى : إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٧١

(٤) المقريزى : امتاع الأسماع ج ١ ص ١٧٣ ـ ١٧٤

(٥) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ج ٢ ص٩٥

من فوره عائداً إلى المدينة ولحق به أصحابه[١]. ثم بعث إلى بنى النضير رسولا من قبله ، يأمرهم بالجلاء عن بلده[٢] لنقضهم العهد بمحاولتهم الغدر به ، وأمهلهم عشرة أيام يحاربون بعدها إذا لم يخرجوا ، فأبوا عليه ذلك فأمر الرسول أصحابه بالتهيؤ لمحاربتهم ، ثم زحف إليهم فى ربيع الأول سنة ٤هـ ، فوجدهم مقيمين بحصونهم ، ولم تعنهم قريظة بل اعتزلتهم ، كما أن عبدالله ابن أبى وحلفاءهم من غطفان خذلوهم[٢]، فحاصرهم الرسول ، وألقى الله فى قلوبهم الرعب ، فلما رأوا أنه ليس لديهم القوة لمحاربة الرسول ، طلبوا منه الصلح[٣]. فصالحهم ـ بعد أن ظل يحاصرهم خمسة عشر يوماً ـ على ألا يتعرض لأحد منهم بسوء ، وأن يرحلوا من بلده ولهم ماحملت الإبل من أموالهم ومتاعهم ، ولرسول الله أرضهم ونخلهم وأسلحتهم[٤]، فخرجوا من المدينة على ستمائة بعير نقلوا عليها مااستحسنوه من بيوتهم التى خربوها بأيديهم ، ونزل أكثرهم بخيبر وذهبت طائفة منهم إلى الشام[٥].

أنزل الله تعالى فى بنى النضير وجلائهم عن المدينة هذه الآيات فى سورة الحشر[٦](سبح لله مافى السموات ومافى الأرض وهو العزيز الحكيم ، هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين

(١) ابن هشام : جـ ٣ ص١٩١ ، المقريزى . امتاع الأسماع جـ ١ ص١٧٨ .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣١ .
(٣) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير جـ ٣ ص٩٩ .
(٤) اليعقوبى : جـ ٢ ص ٣٧ .
(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣١
(٦) ابن هشام : جـ ٣ ص ١٩٢ ـ ١٩٣ ، المقريزى . إمتاع الأسماع جـ ١ ص١٨١
(٧)، آية : ١ ـ ٥ .

فاعتبروا يا أولى الأبصار ، ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الاخرة عذاب النار ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ، ماقطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين) .

كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله ، أى أنها خالصة له يضعها حيث يشاء[1] يقول الله تعالى فى سورة الحشر[2]: (ماأفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لايكون دولة بين الأغنياء).

فلما غنم الرسول أموال بنى النضير ، دعا الأنصار وذكرهم بما صنعوا للمهاجرين وإنزالهم إياهم فى منازلهم ، ثم قال لهم : ليس لإخوانكم من المهاجرين أموال ، فإن شئتم قسمت هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعاً ، وإن شئتم امسكتم اموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة . فقالوا : بل قسم هذه فيهم وأقسم لهم من أموالنا ماشئت ، فقسم الرسول ماأفاء الله عليه ، على المهاجرين دون الأنصار[3] .

لم يبق بالمدينة من اليهود بعد إجلاء بنى النضير إلا بنو قريظة . وكان بينهم وبين الرسول عهد فنقضوه وانحازوا إلى قريش فى واقعة الخندق[4]. فأصبح الرسول يرى بعد موقفهم العدائى منه فى هذه الواقعة أن وجودهم بالمدينة خطر عليه لذلك نجده بعد انصراف الأحزاب يشرع من فوره الى دعوة المسلمين لمحاربة بنى قريظة ، فساروا معه وحاصروهم فى حصونهم

(١) ابن هشام : «ح ٣ ص ١٩٤ » ، البلاذرى : فتوح البلدان ص٣٣ .

(٣) البلاذرى : « فتوح البلدان ص٣٢ - ٣٤ ، المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص١٨٢ - ١٨٣

(٤) اليعقوبى ج ص٣٩

التى تحصنوا بها . فبعث اليه بنو قريظة رسولا من قبلهم يطلب منه ان يصالحهم كما صالح بنى النضير ، ويخرجون من المدينة بنسائهم وذراريهم وماحملت إبلهم ، فأبى الرسول لأنه رأى أن بنى النضير بعد أن أجلاهم من المدينة ألبوا عليه الاحزاب فأثاروا قريشاً وعرب البادية من غطفان وغيرها ، فإذا ما أجلى بنى قريظة كما أجلى بنى النضير فإنهم قد يتحالفون مع بنى جلدتهم من اليهود ضده ويثيرون عليه القبائل العربية التى لم تزل على وثنيتها . هذا الى أن بنى قريظة كادت تكون سبباً فى إلحاق الهزيمة بالمسلمين بمظاهرتها قريش فى واقعة الخندق ، لذلك رأى الرسول أنه لابد من التخلص منهم ، فلما اشتد عليهم الحصار ، نزلوا على حكمه بعد أن ظل يحاصرهم خمسة عشر يوماً ، فأمر باعتقال أسراهم وأبقى النساء والذرارى فى ناحية بعد أن أخرجهم من الحصون ، وجمعت أموالهم ومواشيهم وأسلحتهم فطلبت الأوس من الرسول أن يهب لهم بنى قريظة لأنهم حلفاؤهم ، فقال لهم : أما ترضون أن يكون الحكم فيهم إلى رجل منكم ؟ فرحبوا بذلك ، ووقع اختيار الرسول على سعد بن معاذ الأوسى ، فلقى هذا الاختبار قبولا منهم وقضى سعد بأن تقتل رجالهم وتسبى النساء والذرية ، وتقسم أموالهم بين المسلمين . فاقر الرسول هذا الحكم وعمل على تنفيذه[١].

تم للنبى بالقضاء على بنى قريظة السيطرة على المدينة ، وأصبح يأمن فيها على نفسه بعد أن تخلص من العناصر المناوئة ، كما انتفع فقراء المسلمين بصفة خاصة من أنصار ومهاجرين بتلك الأراضى والمنقولات التى كان يمتلكها اليهود .

لم ينته خطر اليهود ببلاد الحجاز بإجلائهم عن المدينة ، فرأى الرسول

(١) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير جـ ٣ ص١١٧ ـ ١٢٠ ، المقريزى ، امتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦ .

بعد أن عقد مع قريش صلح الحديبية أن يهاجم خيبر حيث يقيم اليهود الذين كانوا يمتون بصلات كثيرة إلى قبائل بنى قينقاع وبنى النضير ، وكان الخطر من قبلهم على المدينة لايزال متوقعاً ؛ فتأهب الرسول للخروج اليهم فى السنة السابعة للهجرة وأمر أصحابه بالتهيؤ للغزو ، وأعلن بينهم ألا يخرج معه إلا كل راغب فى الجهاد(١). ثم سار قاصداً خيبر على رأس ألف وأربعمائة من المسلمين الذين كانوا معه فى الحديبية .

كان يهود خيبر اذ ذاك يقيمون بحصون على نحو ماكان يفعل بنو جلدتهم بيثرب . ولم يدر بخاطرهم أن الرسول سيغزوهم لمنعتهم ووفرة سلاحهم وكثرة عددهم ، لكن الرسول مالبث أن نزل بساحتهم ليلا على حين غفلة منهم ، بحيث لم يستطيعوا ان يضموا اليهم حلفاءهم . فلما اصبح الصباح وشرعوا يتأهبون لأداء أعمالهم فوجئوا بمشاهدة المسلمين أمامهم ، فذعروا وولوا هاربين الى حصونهم ، ثم دار القتال بني الفريقين وهاجم المسلمون حصون اليهود حصناً ، بعد حصن وتمكنوا من فتح بعضها عنوة ، كما اخذوا البعض الآخر صلحاً ، .ومن الحصون التى فتحها المسلمون عنوة حصن الشق والنطاة وحصن ناعم وحصن مصعب بن معاذ ، واستولى المسلمون على حصون الوطيح والكتيبة والسلالم صلحا .

أصبحت الحصون التى فتحت عنوة ملكا للمسلمين . أما ما أخذ صلحاً ، فقد اتفق الرسول مع اصحابها على أن يبقوا بالأرض يزرعونها مناصفة ، النصف للمسلمين والنصف الآخر لليهود(٢). ولما سمع أهل فدك(٣)بتلك المعاملة الحسنة التى عامل بها الرسول أهالى حصون خيبر ،

---

(١) ابن سعد : كتاب الطبقات جـ ٣ ص ١٥٢ ، المقريزى . امتاع الأسماع جـ ١ ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٢) ابن سعد جـ ٣ ص١٦٠ ، المقريزى . امتاع الأسماع جـ ١ ص٣١٢ ، ٣١٩ ، ٣٢٧ - ٣٢٨ .

(٣) فدك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان . » ياقوت معجم البلدان جـ ٦ ص ٤٣٢ .

أرسلوا إليه يطلبون الصلح ، فصالحهم وصاروا يعطونه نصف غلة أرضهم[١]. وأصبحت فدك خالصة له لأن المسلمين لم يقفوا عليها بخيل ولاركاب ، أما مغانم خيبر فقسمت على أهل الحديبية[٢]. يقول الله تعالى فى سورة الفتح[٣](وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه)[٤].

كان لانتصار المسلمين فى خيبر أهمية خاصة ، فقد ترتب عليه أن أصبح لدولتهم الناشئة أراضى مملوكة خارج المدينة يجبون منها الخراج ، كما أدى إلى وجود جماعة من اليهود يشملها السلطان السياسى للدولة الإسلامية . وهكذا وجد بتلك الدولة لأول مرة أهل ذمة . وقد سمح لهؤلاء الذميين بأن يظلوا على دينهم ويستغلوا أراضيهم وفق الشروط التى تؤخذ عليهم .

---

(١) ابن هشام : جـ ٣ ص ٣٨٩ .
(٢) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص٣٢٦ .
(٣) آية ٢٠ .
(٤) يعنى خيبر .

٤ ـ توجيه الدعوة الإسلامية إلى خارج بلاد الحجاز

رأى الرسول صلى الله عليه وسلم بعد تخلصه من يهود المدينة وعقده صلح الحديبية مع قريش أن يوجه نظره إلى خارج بلاد الحجاز لينشر بها الدعوة الإسلامية ، فأخذ منذ السنة السادسة للهجرة فى إرسال رسل من قبله إلى قبائل العرب وأمراء النواحى . بل إلى ملوك الدول المعاصرة له ، وتعد هذه السياسة نقطة تحول هامة فى تاريخ بلاد العرب ؛ فبعد أن كانت تلك البلاد مفككة العرى ويخضع بعض أطرافها للنفوذ الأجنبى ، استطاع بسياسته التى اتبعها لتعميم الدعوة الإسلامية أن يمهد السبيل لتوحيد بلاد العرب سياسياً ودينياً .

(ا) كتب الرسول إلى أمراء العرب .

كان من بين أمراء العرب الذين أرسل إليهم الرسول كتباً يدعوهم فيها إلى الإسلام ، المنذر بن ساوى أمير البحرين ، فقد بعث إليه الرسول كتاباً مع العلاء بن الحضرمى ، فكتب إليه المنذر بإسلامه وقال : « فانى قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه وبأرضى يهود ومجوس ، فأحدث إلى فى ذلك أمرك » . فكتب إليه الرسول : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى ، سلام عليك ، فانى أحمد اليك الله الذى لااله إلا هو ، واشهد أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، أما بعد فإنى أذكرك الله عز وجل فإن من ينصح فإنما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيراً ، وإنى قد شفعتك فى قومك ، فاترك للمسلمين ماأسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب ، فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية »[١].

(١) النبهانى : الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص ١٦٩ ـ ١٩٠ .

وكتب الرسول إلى أميرى عمان : جيفر وعباد ابنى الجلندى ـ وهما من الأزد ـ كتاباً بعثه مع عمرو بن العاص فى ذى القعدة سنة ثمان[١]. وجاء فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبدالله ورسوله إلى جعفر وعباد ابنى الجلندى ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعو كما بدعاية الإسلام ، أسلما تسلما ، فانى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، وإنكما إن أقررتما بالإسلام ولتكما وإن إبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما وخيلى تحل بساحتكم وتظهر نبوتى على ملككما[٢]» فأجابا إلى الإسلام وصدقا بالنبى[٣]

وبعث الرسول سلط بن عمر العامرى إلى هوذة بن على الحنفى وإلى ثمامة ابن أثال أميرى اليمامة يدعوهما إلى الإسلام ، فلم يجبا دعوبه[٤]

وكتب الرسول إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى صاحب دمشق كتاباً بعثه مع شجاع بن وهب[٥]، جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق ، وإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده ، لاشريك له يبقى لك ملكك » . فلما أتاه الكتاب ، قال : من ينزع منى ملكى ، أنا سائر إليه (أى محاربه) ولم يسلم . فقال الرسول : باد وباد ملكه

كذلك بعث الرسول الحارث بن عمير الأزدى بكتاب إلى صاحب بصرى ، فلما نزل مؤتة[٦]اعترضه شر حبيل بن عمرو الغسانى وقتله[٧].

---

(١) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير جـ ٢ ص٢٧ .
(٢) النبهانى : الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص١٧٠ .
(٣) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير جـ ٢ ص٢٧
(٤) ابن هشام : جـ ٤ ص٢٨٩ ، ابن سعد جـ ٢ ص ٢٩ .
(٥) الطبرى : جـ ٢ ص ٢٩٤
(٦) مؤته قرية من قرى البلقاء فى حدود الشام ، ياقوت : معجم البلدان جـ ٨ ص١٩٠
(٧) النبهانى ، الأنوار المحمديه من المواهب اللدنية ص١٠٣ ، المقريزى ، إمتاع الأسماع جـ ص٣٤٥ .

وكتب الرسول إلى بعض أمراء اليمن ، منهم الحارث بن عبد كلال الحميرى وشريح بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال . ونعمان قيل ذى يزن ومعافر وهمدان ، وزرعة ذى رعين يدعوهم إلى الاسلام ، وأمرهم أن يؤدوا الصدقة والجزية لمعاذ بن جبل ومالك بن مرارة وأوصاهم بهما خيرا ، فبعث إليه مالك بن مرارة يخبره باسلامهم ودخولهم طاعته[١].

(ب) كتب الرسول إلى ملوك وأمراء الدول المعاصرة :

كذلك وجه الرسول إلى ملوك وأمراء الدول المجاورة لجزيرة العرب كتباً مؤداها الترغيب فى الدخول فى الدين الإسلامى ، ولم يطلب منهم الخضوع لسلطانه . فأوفد عمرو بن أمية الضمرى إلى نجاشى الحبشة ، وبعث معه كتابا يدعوه فيه الى الإسلام . فكتب اليه النجاشى رسالة يخبره فيها بقبوله دعوته وتصديقه اياها[٢].

أما هرقل قيصر الروم ، فبعث اليه الرسول كتاباً مع دحية بن خليفة الكلبى ، جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك أثم الأريسيين[٣]. ويأأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لانعبد الا الله ولانشرك به شيئاً ولايتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »[٤]فقبل هرقل كتاب الرسول وكتب اليه . « الى أحمد رسول الله الذى بشر به عيسى ، من قيصر ملك الروم ، انه جاءنى كتابك مع رسولك ، وانى أشهد أنك رسول الله . نجدك عندنا فى الإنجيل ، بشرنا بك عسى ابن مريم ، وانى دعوت الروم أن يؤمنوا بك ، فأبوا ، ولو أطاعونى لكان خيراً

(١) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير جـ ٢ ص٢٩ .
(٢) ابن سعد : جـ ٢ ص٢٣ .
(٣) أى فإن مع إثمك إثم الأتباع والأريس = الفلاح .
(٤) النبهانى : الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص١٦٦ .

لهم ولوددت انى عندك فأخدمك وأغسل قدميك(١).

وبعث الرسول الى كسرى فارس كتابا مع عبدالله بن حدافة السهمى يدعوه فيه الى اعتناق الإسلام ، واليك نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لااله الا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله عز وجل فإنى رسول الله الى الناس كلهم لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم ، فإن توليت فعليك إثم المجوس » ، فلما قرىء عليه الكتاب مزقه فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « مزق الله ملكه »(٢).

كذلك وجه الرسول الى المقوقس حاكم مصر من قبل هرقل امبراطور الروم كتابا مع حاطب بن أبى بلتعة ، جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبدالله ورسوله الى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك اثم القبط ، « ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبيكم أن لانعبد الا الله ولانشرك به شيئاً ، ولايتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » . فأحسن المقوقس استقبال رسول النبى وقبل كتابه وأجابه بقوله : « كنت أعلم أن نبياً قد بقى ، وقد كنت أظن أن مخرجه الشام ـ وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله ـ ، فأراه قد خرج فى العرب فى أرض جهد وبؤس ، والقبط لاتطاوعنى فى اتباعه ، ولاأحب أن يعلموا بمحاورتى إياك(٣)» ، وبعث

(١) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص٦٢ .

(٢) الطبرى : ج ٢ ص٢٩٦ ، المقريزى : إمتاع الاسماع ج ١ ص٣٠٩ ، النبهانى ، الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص١٦٦ .

(٣) ابن عبدالحكيم : فتوح مصر جـ ٣ ص٤٢ .

معه بهدية الى النبى صلى الله عليه وسلم[١].

فهذه الكتب التى وجهها الرسول صلى الله عليه وسلم الى أمراء العرب والملوك المعاصرين له توضح لنا سياسته فى العمل على تعميم نشر الدعوة الإسلامية ، كما تثبت لنا حرصه على تحقيق ماورد فى القرآن من مطالبته الناس جميعاً بقبول الإسلام ، وفيما يلى بعض الآيات التى تشير الى أن الدين الإسلامى أنزل للناس جمعاً .

قال الله تعالى فى سورة (ص)[٢]: ﴿ ان هو الا ذكر للعالمين ، ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ .

وفى سورة (يس) آية ٦٩ : (وماعلمناه الشعر وماينبغى له ان هو إلا ذكر وقرآن مبين ، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين) .

وفى سورة (الفرقان) آية ١ (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) .

وفى سورة (سبأ) آية ٢٨: (وماأرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لايعلمون) .

وفى سورة (الأعراف) آية ١٥٨ (قل ياأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعاً) .

(١) المقريزى ، امتاع الأسماع جـ ١ ص٣٠٨ .
(٢) آية ٨٧ و ٨٨ .

٥ ـ تأمين حدود بلاد العرب الشمالية

وتوطيد سلطان المسلمين عليها

رأى الرسول أن يتبع دعوته السلمية لنشر الإسلام خارج بلاد الحجاز بإعداد جيش لغزو الأراضي الجنوبية لبلاد الشام حيث يقيم الغساسنة . وكان مما دعاه الى ذلك أن الحارث بن عمير الأزدي لما نزل مؤتة بكتابه إلى صاحب بصرى ، اعترضه شرحبيل بن عمرو الغساني وضرب عنقه ، فأستاء الرسول ، ودعا المسلمين إلى التأهب للحرب ، فسارعوا إلى تلبية دعوته ، وعسكروا بالجرف[١] .

وقع اختيار الرسول على مولاه زيد بن حارثة الكلبي ليكون أمير الجيش ، وأوصى في حالة موته أن يخلفه جعفر بن أبي طالب ، وإذا قتل جعفر حل محله عبدالله بن رواحة الأنصاري ، وإن أصيب عبدالله بسوء ، فليتفق المسلمون على إسناد القيادة لرجل منهم[٢] . فخرج هؤلاء الأمراء إلى مؤتة في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة ، على رأس جيش بلغت عدته ثلاثة آلاف ، وشيعهم رسول الله إلى ثنية الوداع[٣] ، وأوصى أمراء الجيش بقوله[٤] « أوصيكم بتقوى الله ، وبمن معكم من المسلمين خيراً ، اغزوا باسم الله في سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ، لاتغدروا ولاتغلوا ولاتقتلوا وليداً ، وإذا لقيتم عدوكم من المشركين ، فادعهم الى احدى ثلاث ، فأيتهن ماأجابوك إليها ، فاقبل منهم واكفف عنهم ، ادعهم

---

(١) الجرف : موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام . ياقوت « معجم البلدان » جـ ٣ ص٨٧ .

(٢) اليعقوبي : جـ ٢ ص٤٩ .

(٣) ثنية مشرفة على المدينة . يطؤها من يريد مكة ، وكان الناس في الجاهلية يودعون المسافرين من هذا المكان . ولذا عرف بثنية الوداع . « انظر . ياقوت « معجم البلدان »

(٤) المقريزي . إمتاع الأسماع جـ ١ ص٣٤٤

إلى الدخول فى الإسلام ، فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، فإن فعلوا فأخبرهم أن لهم ماللمهاجرين وعليهم ماعلى المهاجرين ، إن دخلوا فى الإسلام واختاروا دارهم فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، ويجرى عليهم حكم الله ولايكون لهم فى الفىء ولا فى الغنيمة شىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية ، فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم ، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم . . . »

« وإن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تستنزلهم على حكم الله ، فلا تستنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لاتدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا؟ وإن حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك على أن تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله ، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فإن تخفروا[1] ذمتكم . وذمة آبائكم خير لكم من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله » .

« وستجدون رجالا فى الصوامع معتزلين للناس ، فلا تتعرضوا لهم ، وستجدون آخرين فى رءوسهم مفاحص[2] ، فاقلعوها بالسيوف ، لاتقتلن امرأة ولاصغيراً ضرعاً[3] . ولاكبيراً فانياً ، ولاتغرقن نخلا ، ولاتقلعن شجراً ، ولاتهدموا بيتاً » .

ولما فرغ الرسول من نصيحته لأمراء الجيش ، قال له عبدالله بن رواحه : « يارسول الله : مرنى بشىء أحفظه عنك ، قال : إنك قادم غداً بلداً ،

(١) أى تنقضوا ذمتكم ولاتوفوا بها .
(٢) المقصود بذلك أن الشيطان استوطن فى رءوسهم ، فجعل له فيها كمفاحص كمفاحص الطير ، فألومهم شدة البغى » انظر كتاب امتاع الأسماع ، حاشية رقم ٢ ص ٣٤٦ .
(٣) الضرع : الصغير السن .

السجود فيه قليل ، فأكثر السجود ، قال : زدنى يارسول الله ، قال : اذكر الله فإنه عون لك على ماتطلب » .

سار جيش المسلمين إلى تخوم البلقاء . وكانت موطن نفوذ الغساسنة ـ ولما وصلوا إلى بلدة معان ، بلغهم أن هرقل نزل بمكان يقال له مآب في مائة ألف من الروم ومعه من قبائل بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام مائة ألف ، يتولى قيادتهم رجل من قبيلة بلى يقال له مالك بن رافلة[(١)]، فأخذوا يفكرون فى الأمر وأرادوا أن يكتبوا إلى الرسول بكثرة عدد العدو ليبعث إليهم مدداً أو يأمرهم بالعودة إلى المدينة . فشجعهم عبدالله بن رواحة على المضى فى القتال وقال : « والله ماكنا نقاتل الناس بكثرة عدد ولابكثرة سلاح ولابكثرة خيول الا بهذا الدين الذى أكرمه الله به ، انطلقوا ، والله لقد رأيتنا يوم بدر مامعنا إلا فرسان ، ويوم أحد فرس واحد فإنما هى إحدى الحسنيين ، إما ظهور عليهم ، فذلك ماوعدنا الله ووعد نبينا وليس لوعده خلف ، وإما الشهادة فلنلحق بالأخوان نرافقهم فى الجنان[(٢)]» ، فتغلبت على المسلمين الحماسة الدينية وعزموا على المضى فى سيرهم ، فمضوا إلى بلدة مؤتة حيث وافاهم المشركون معهم مالا قبل لهم من العدد والسلاح والديباج والحرير والذهب[(٣)]. ثم دار القتال بين الفريقين ، فأخذ زيد بن حارثة اللواء وظل يقاتل حتى قتل ، فخلفه جعفر بن ابى طالب فى القيادة . غير أنه لم يلبث أن استشهد فى ميدان القتال وخلفه عبدالله ابن رواحه فقتل[(٤)] . ثم ولى المسلمون عليهم خالد بن الوليد[(٥)]. فبذل جهده فى إنقاذ بقية جند المسلمين وعاد بهم إلى المدينة فقابلهم أهلها بشىء من السخط . غير أن الرسول لم ينظر إلى حادث انهزامهم هذه

(١) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٣٤٧ .
(٢) المقريزى : امتاع الأسماع جـ ١ ص ٣٤٨ .
(٣) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ج ٣ ص١٧٥ .
(٤) ابن هشام : جـ ٢ ص ٤٣٣ ـ ٤٣٥ .
(٥) ابن سعد : جـ ٢ ص ١٧٥ : الطبرى جـ ٢ ص ٢٢ .

النظرة ، بل أظهر أمله فى عودتهم لمهاجمة العدو وإحراز النصر عليه .

رأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقضى على الآثار التى خلفتها غزوة مؤتة ويقوم بعمل حاسم يحول دون حدوث أى تهديد من قبل الروم ، فلما تم له فتح مكة فى السنة الثامنة للهجرة وانصرف عائداً الى المدينة ، عول على غزو حدود بلاد الشام الجنوبية المتاخمة لأعالى الحجاز ليوطد نفوذه بتلك المنطقة ويدعو أهلها إلى الإسلام ، فبين لأنصاره الجهة التى سيغزونها ليتدبروا أمرهم ويأخذوا أهبتهم . وكان قد بلغه أن الروم جمعت جموعا كثيرة بالشام وضموا اليهم لخم وجذام وغسان وعاملة[١]، ثم بعث إلى القبائل ورؤساء العشائر يحثهم على الخروج ويرغبهم فى الجهاد[٢]، كما حض الرسول المسلمين على بذل المال فى سبيل الله[٣]، فسارعوا إلى تلبية طلبه . فجاء أبو بكر الصديق بكل ماله ، ـ وهو أربعة آلاف درهم ـ ، وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله ، كما حمل إليه كل من العباس بن عبدالمطلب ، وطلحة بن عبيدالله وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمه مالا وفيراً . وكان عثمان بن عفان من أكثرهم نفقة ، إذ جهز ثلث الجيش[٤]. كذلك أقبل أهل الغنى من الرجال والنساء على التبرع ببعض أموالهم .

وكانت حرارة الصيف وقتذاك شديدة ، والثمار قد طابت ، ويؤثر الناس البقاء بجوار ثمارهم[٥]. فلما دعى الرسول المسلمين الى التهيؤ للغزو وجد تثاقلا من بعضهم ، فاعتذر جماعة بأعذار واهية منها : مشاق السفر

(١) ابن سعد : جـ ٣ ص ٢١٨ ، المقريزى . امتاع الأسماع جـ ١ ص ٤٤٦ .
(٢) اليعقوبى : جـ ٣ ص ٥١ .
(٣) ابن هشام : جـ ٤ ص ١٧٢ .
(٤) انظر . النبهانى : الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص ١٢٧ .
(٥) المقريزى : امتاع الإسماع جـ ١ ص ٤٤٦ - ٤٤٧ .
(٦) ابن هشام : جـ ٥ ص ١٦٩ - ١٧٠ .

ومتاعبة وشدة الحر ، كما جاءه فريق من المنافقين يستأذنونه فى التخلف عن القتال دون أن يكون بهم علة يشكون منها ؛ وتشير إلى ذلك هذه الآيات فى سورة التوبة :

(يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل) (آية ٣٨).

(لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة. وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون) (آية ٤٣) .

(فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وقالوا لاتنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون) (آية ٨١) .

(انما يستئذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون) . (آية ٤٥) .

(وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم) (آية ٩٠) .

لما تغلب الرسول على الصعاب التى لاقاها فى سبيل إعداد الجيش ، اعتزم المسير إلى حدود بلاد العرب الشمالية ؛ فخرج ومعه ثلاثون ألفاً فى أول رجب سنة تسع . وكان عبدالله بن أبى بن سلول إذ ذاك قد عسكر مع انصاره خارج المدينة بمكان يعرف بثنية الوداع وأخذ يثبط عزائمهم بادعائه أن المسلمين لامحالة منهزمون اذا ماوقفوا أمام الروم ، ثم مالبث أن تخلف عن النبى هو واتباعه وعادوا إلى المدينة[1].

(١) المقريزى : امتاع الاسماع جـ ١ ص ٤٥٥ .

لم يبال الرسول بتخلف هؤلاء المنافقين ومضى فى سيره حتى وصل تبوك[١]، فحط بها رحله وصالحه اهلها على الجزية[٢]، ثم شاور أصحابه فى التقدم شمالا والسير إلى حدود الشام ؛ فقال له عمر بن الخطاب : إن كنت أمرت بالسير فسر ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : لو أمرت به ماأستشرتكم فيه ، فقال له أصحابه : يارسول الله ، إن للروم جموعاً كثيرة ، وليس بها أحد من أهل الإسلام ، وقد دنوت منهم حيث ترى وقد أفزعهم دنوك ، فلو رجعت هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله لك فى ذلك أمراً[٣]. فاكتفى الرسول بإيفاد بعض سراياه إلى الجهات المجاورة لتبوك .

كان الرسول قد وجه رسالة إلى أحد الأمراء المقيمين على الحدود الشمالية ويدعى يحنة بن رؤبة ـ صاحب أيلة ـ يطلب إليه فيها إما أن يعلن إسلامه أو يؤدى اليه الجزية[٤]، فأقبل عليه هذا الأمير ـ بعد وصوله الى تبوك ـ ومعه أهل جرباء[٥]وأذرح[٦] وبعض أهل الشام واليمن ، فصالحهم وفرض عليهم جزية معينة . وكان بأيلة ثلاثمائة رجل ، فقرر عليهم ثلاثمائة دينار ، وكتب ليحنه بن رؤبة هذا الكتاب[٧]: بسم الله الرحمن الرحيم . هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيله ، سفنهم وسياراتهم فى البر ، لهم ذمة الله وذمة محمد النبى ومن كان معهم من

(١) تقع على بعد اثنى عشر فرسخاً من المدينة
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٧١ .
(٣) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٤٦٣ .
(٤) ابن سعد : جـ ٢ ص ٤٢ .
(٥) حرباء : موصع من اعمال عمان بالبلقاء . ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ص ٧٢ .
(٦) أذرح : بلد فى أطراف الشام من نواحى البلقاء وعمان مجاورة لأرض الحجاز « ياموت » .
(٧) ابن هشام · حـ ~ ١٨٠ ـ ١٨١ ابں سعد جـ ٢ ص ٥٥ .

أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن احدث منهم حدثاً فإنه لايحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمن أخذه من الناس وإنه لايحل أن يمنعوا ماء يردونه ولاطريقاً يريدونه من بر أو بحر » .

وكتب لأهل جرباء(١): « هذا كتاب من محمد النبى رسول الله ، أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل عليهم » .

وكتب لأهل أذرح(٢): « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبى لأهل أذرح أنهم آمنون بأمان الله ومحمد ، وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيبة والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين ، من لجأ إليهم من المسلمين من المخالفة والتعزير(٣)إذا خشوا على المسلمين وهم آمنون حتى يحدث إليهم محمد قبل خروجه » .

وكتب لأهل مقنا(٤)ـ وكانوا يهوداً(٥)« أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وأن عليهم ربع غزولهم وربع ثمارهم » .

كذلك رأى الرسول أثناء إقامته بتبوك أن يبعث خالد بن الوليد إلى دومة الجندل(٦)على رأس حملة خشية خروج ملكها أكيدر بن عبدالملك ومعاونته جيوش الروم إذا ماأتت من ناحيته ، وتحقيقاً لسياسته التى ترمى إلى بسط سلطانه على شمال الحجاز ، وكان أكيدر من كندة يدين بالنصرانية فأمر الرسول خالد بن الوليد بأن يأتى به إليه ونهاه عن قتله فسار اليه خالد وقبض

(١) المقريزى : امتاع الأسماع جـ ١ ص ٤٦٨ .
(٢) ابن سعد : جـ ٢ ص ٥٥ ـ ٥٦ ، المقريزى امتاع الأسماع ص ٤٦٩ .
(٣) التعزير : النصرة بالسيف ـ حاشية رقم ٥ ـ امتاع الأسماع ص ٤٦٩ .
(٤) مقنا : تقع على مقربة من أيلة « ابن سعد جـ ٢ ص ٤١ » .
(٥) ابن سعد : جـ ٢ ص ٤١ ، ٥٦
(٦) دومة الجندل : واحة خصبة ، يقيم بها بطون كندة ، تقع شمال المدينة على بعد خمس عشرة ليلة .

عليه[١]، وأظهر استعداده ليجيره من القتل حتى يأتى به الرسول على أن يفتح له دومة الجندل ، فقبل أكيدر وفتحت أبواب دومة للمسلمين بعد أن تم الصلح بين خالد واكيدر على أن ينزل هذا الأخير للمسلمين عن ألفى بعير وثمانمائة رأس وأربعمائة رمح . ثم قدم خالد بأكيدر على الرسول بالمدينة[٢]، فصالحه الرسول على أداء الجزية وأخلى سبيله[٣] ، وكتب له ولأهل دومة كتابا ، وفيما يلى نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر ، حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد[٤]والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله فى دومة الجندل وأكنافها : أن له الضاحية[٥] من الضحل[٦]والبور ، والمعامى[٧]، وأغفال[٨]الأرض ، والحلقة ، والسلاح ، والحافر والحصن ، ولكم الضامنة[٩]من النخل ، والمعين[١٠] من المعمور بعد الخمس ، لاتعدل[١١]سارحتكم[١٢] ولاتعد فاردتكم[١٣]، ولايحظر عليكم الثبات ولايؤخذ منكم إلا عشر الثبات[١٤]. تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة

(١) الطبرى : جـ ٢ ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣ .
(٢) ابن سعد : جـ ٣ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ ، والمقريزى . امتاع الأسماع جـ ١ ص ٤٦٥ .
(٣) ابن سعد : جـ ٢ ص ٥٤ ـ ٥٥ والبلاذرى ، فتوح البلدان ص ٧٢ ـ ٧٣ .
(٤) الإنداد : الأمثال والشركاء .
(٥) الضاحية : الأرض البارزة .
(٦) والضحل : الماء القليل
(٧) المعامى : البلاد المجهولة .
(٨) اغفال الأرض : التى لاآثار بها .
(٩) الضامنة : ماحمل من النخل .
(١٠) المعين : الماء الجارى
(١١) لاتعدل : لاتصرف عن مرعى تريده .
(١٢) السارحة : الماشية التى تسرح فى المراعى .
(١٣) الفاردة : مالا تجب فيه الصدقة .
(١٤) الثبات : النخل القديم الذى ضرب عروقه الأرض وثبت راجع ابن سعد جـ ٢ =

بحقها . عليكم بذلك العهد والميثاق . ولكم بذلك الصدق والوفاء ، شهد الله ومن حضر من المسلمين » .

انصرف الرسول من تبوك بعد أن أقام بها بضع عشرة ليلة[١] وعاد إلى المدينة دون أن يتابع السير إلى حدود الشام ولم يقع قتال بينه وبين الروم كما كان متوقعاً ، بل اكتفى بتوطيد سلطانه السياسى على شمال الحجاز . وقد تم له ذلك بعد أن أقبلت عليه وفود المستعمرات النصرانية واليهودية من المنطقة الواقعة على مقربة من الحدود الشمالية لبلاد الحجاز ، واتفق معها على أن يؤدوا إليه جزية معينة ؛ وبذلك تيسر له إخضاع اهالى تلك المنطقة لنفوذه لسياسى وأصبحت بلاد الحجاز بأكملها تحت سلطانه .

ولما أدى الرسول حجة الوداع فى السنة العاشرة للهجرة ، وعاد مع أصحابه إلى المدينة ، أصبح لايخشى شيئاً من ناحية جزيرة العرب لسيادة الدين الاسلامى على أقاليمها ومدنها ؛ لكنه كان يرى أن دولته الاسلامية لاتزال مهددة بالخطر من ناحية الشمال حيث كان الروم يرابطون على حدود الشام الجنوبية ، لذلك وجه اهتمامه إلى تأمين حدود بلاد العرب الشمالية ؛ فأمر بتجهيز جيش لغزو أطراف الشام الجنوبية ، أسند قيادته إلى أسامة بن زيد بن حارثة[٢] . وأوصاه بقوله[٣] : « أغز باسم الله فى سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ، أغزوا ولاتغدروا ، ولاتقتلوا وليداً ولاامرأة ولاتمنوا لقاء العدو ، فإنكم لاتدرون لعلكم تبتلون بهم ، ولكن قولوا : اللهم أكفناهم ، واكفف بأسهم عنا ، فإن لقوكم قد أجابوا وصيحوا ، فعليكم بالسكينة والصمت ، ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، وقولوا اللهم إنا عبادك ، نواصينا

= ص ٥٤ و ٥٥ : حواشى « المقريزى : امتاع الأسماع جـ١ ص٤٦٦ - ٤٦٧ » ، حاشية رقم ١ البلاذرى : فتوح البلدان ص ٧٣ » .

(١) المقريزى : امتاع الأسماع جـ ١٢ ص٤٧٣ .

(٢) الطبرى : جـ ٢٢ ص ٤٢٩ .

(٣) المقريزى : امتاع الأسماع جـ ١٢ ص٥٣٦ - ٥٣٧ .

ونواصيهم بيدك وانما تغلبهم أنت ، واعلموا أن الجنة تحت البارقة [1]»

لقت الدعوة التى وجهها الرسول الى المسلمين للاستراك فى حملة اسامة قبولا من كثير من وجوه المهاحرين الاولين والانصار كعمر بن الخطاب وابى عبيدة عامر بن الجراح وسعد بن ابى وقاص وسعيد بن زيد وقتادة بن النعمان . غير أن بعض المهاجرين ساءه تولية أسامة قيادة الحملة لحداثة سنه[2]، فقد كان وقتذاك لاينحاوز العشرين من عمره . فلما بلغ ذلك الرسول ـ وكان قد بدأ يشتكى من المرض الذى ألم به ، غضب غضباً شديداً ، وألقى على المسلمين خطبة فى المسحد ، قال فيها[3]: « أما بعد ، أيها الناس ، فما مقالة بلغتنى عن بعضكم فى تاميرى اسامة ؟ والله لئن طعنتم فى إمارتى أسامة لقد طعنتم فى إمارتى أباه من قبله ، وأيم الله ، إن كان للامارة لخليقاً ، وإن ابنه من بعده لخليق للامارة ، وإن كان من أحب الناس إلى ، وإنهما لمخيلان لكل خير ؛ فاسوصوا به خيراً ، فإنه من خياركم »

حرص الرسول صلى الله عليه وسلم ـ رغم المرض الذى . . . على المضى فى إعداد حملة أسامة بن زيد ؛ فقال للمسلمين الذين جاءوا يودعونه قبل خروجهم مع أسامة : « أنفذوا بعث أسامة » « فأخذ المسلمون يتهيئون للغز وركب أسامة إلى معسكره ـ خارج المدينة ـ ، وطلب من أصحابه اللحاق به . غير أنه لم يكد يشرع فى السير بحملته حتى أتاه خبر اشتداد المرض على الرسول ؛ فأقبل إلى المدينة يصحبه عمر بن الخطاب وأبى عبيده بن الج وبعد فتره قصيره من وصوله إليها . انتقل الرسو

(١) البارقة : السيوف . حاشيه رقم ١ ـ المقريزى ، امتاع . . . ص ٥٠٧ ،
(٢) . . .
(٣) ابن سعد . جـ ٤٢ ص ٣ ـ ، المقريزى ، امتاع الأسماع جـ ١٢ ص٣٧ .

إلى جوار به ودلك فى يوم الإثنين ١٢ ربيع الأول سنه ١١ هـ[١].

* * *

لما بويع أبو بكر الصديق بالخلافة ، بدأ عمله بإنفاذ بعث اسامة بن زيد لغزو أطراف الشام الجنوبية تحقيقا لما أمر به الرسول . فخرج اسامة فى أول ربيع الثانى سنة إحدى عشرة على رأس الحملة التى أعدت فى حياة الرسول ، ولم يتخلف عنه سوى عمر بن الخطاب الذى راى ابو بكر ابقاءه بحواره فى المدينة ليشير عليه . وبلغ من اهتمام أبى بكر بهذه الحملة أن خرج بنفسه يودع اسامة وقال له : « استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك ، إنى سمعت رسول الله يوصيك ، فانفذ لأمر أمر به رسول الله ، فإنى لست آمرك ولا أنهاك عنه ، إنما أنا منفذ لأمر أمر به رسول الله »[٢].

مضى اسامة فى سيره قاصداً البلقاء ، فلما وصل أبنى[٣]شن الغارة على أهلها وقضى على كل من تعرض له منهم ، كما حرق منازلهم وحرثهم ونخلهم[٤]، وغنم بعض الغنائم ، ثم عاد ظافراً إلى المدينة بعد مايقرب من شهرين[٥]

كانت حملة أسامة عظيمة الأثر ، فقد أوقفت القبائل العربية التى تقيم فى أطراف الشام الجنوبية على قوة المسلمين ، كما أثارت الرعب فى قلوب الروم - رغم أن أسامة لم يلق جيشهم - فاضطروا إلى إرسال حامية قوية لترابط فى البلقاء ، وفضلا عن ذلك ، فإنها مهدت السبيل للحملات التى أرسلت فيما لغزو بلاد الشام .

---

(١) ابن سعد . جـ ٤ ص ٤ ، المقريزى ، . امناع الاسماع جـ ٤ ص ٥٣٧ - ٥٣٩
(٢) المقريزى امتاع الأسماع جـ ١ ص٥٣٩ - ٥٤٠
(٣) أبنى . موضع بالشام من جهة البلقاء ، ويقال انها قرية بمؤته « ياقوت : معجم البلدان . جـ ١ .ص ٩٧ » .
(٤) النبهانى . الأنوار المحمدية ص ١٣٤ .
(٥) المقريزى . امتاع الأسماع جـ ١ ص٥٤٠ .

٦ ـ تحقيق الوحدة الدينية والسياسية بجزيرة العرب

ظهرت بوادر الوحدة الدينية والسياسية بجزيرة العرب بعد عودة الرسول من تبوك فى السنة التاسعة للهجرة حيث أخذت القبائل العربية تفد اليه معلنة إسلامها عن طوع واختيار . وفى ذلك يقول ابن هشام(١) : « ولما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وفرغ من تبوك وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه »

كان وفد ثقيف اسبق الوفود العربية فى القدوم على الرسول ؛ فلما تم اسلام قبيلتهم أصبحت الحجاز كلها تدين بالإسلام ، وأخذت القبائل العربيه الأخرى التى كانت لاتزال محتفظة بوثنيتها تحذو حذو ثقيف ، كما تهيأت كلها للدخول فى الدين الجديد

ولاشك أن فتح مكة وخضوع قريش للدولة الإسلامية الناشئة التى أقامها الرسول بالمدينة أدى إلى حدوث تطور كبير فى موقف القبائل العربية الأخرى من الدعوة الإسلامية ؛ فبعد أن كانت من أشد المعارضين لها أخذت وفودها تسير من جهات جزيرة العرب المختلفة قاصدة المدينة لتعلن دخولها فى الإسلام وطاعتها للرسول ـ لأنها رأت أنه لاقبل لها بمحاربة المسلمين الذين واصلوا الجهاد سنين طويلة دون أن تفتر عزيمتهم(٣).

روى ابن هشام(٣)عن ابن اسحق انه « لما افتتحت مكة ودانت له (أى للرسول) قريش ودوخها الإسلام ، عرفت العرب أنه لاطاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عداوته . فدخلوا فى دين الله كما قال الله ـ عز وجل ـ أفواجا ، يضربون اليه من كل وجه . يقول الله تعالى

(١) سيرة النبى : جـ ٤ ص ٢٢١
(٢) المقريزى : امتاع الأسماع جـ ٤ ص ٤٩٥
(٣) سيرة النبى : جـ ٤ ص ٢٢٢

لنبيه صلى الله عليه وسلم : (إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً ؛ فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان تواباً)[١].

عرفت سنة تسع هجرية بعام الوفود لأن عدداً كبيراً من القبائل العربية وأهالى المدن ، أخذت توفد من قبلها فى هذه السنة وفوداً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تعلن خضوعها وحرصها على الدخول فى الإسلام[٢].

كان الرسول يكرم وفادة رسل القبائل العربية ويعلمهم شرائع الإسلام ويجيزهم ببعض الجوائز عند انصرافهم من المدينة عائدين إلى بلادهم ؛ كما كان يلبس أحسن ثيابه عند مقابلة الوفود ، ويأمر أصحابه بالاقتداء به[٣].

كان أعضاء الوفود العربية الذين يأتون إلى المدينة ليحظوا بمقابلة الرسول يمثلون قبائلهم فى أغلب الأحيان ، فى التعبير عن رغبتهم الصادقة فى اعتناق الإسلام والدخول فى طاعة الرسول ، فإذا ماعادوا إلى موطنهم نشروا الدعوة الإسلامية بين أهاليهم وقاموا بتعليمهم فرائض الإسلام وأحكامه . وكان بعض هذه الوفود يعودون حاملين كتباً من الرسول مبيناً بها مايفرضه عليهم الإسلام من واجبات .

ومن بين هذه الوفود التى وفدت الى الرسول فى سنة تسع وفد بنى اسد بن خزيمة الذين قالوا له حين قابلوه : أتيناك فى ظلمة الليل فى سنة جدباء ، ولم تبعث إلينا بعثاً[٤]؛ فنزلت فيهم هذه الآية فى سورة الحجرات (آية ١٧) (يمنون عليك أن أسلموا قل لاتمنوا على اسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان (إن كنتم صادقين) .

(١) سورة النصر : آية ١ ـ ٣ .
(٢) أرنولد : الدعوة الى الإسلام « ترجمة » ص ٤٢ .
(٣) المقريزى : امتاع الأسماع جـ١ ص٥٠٩ .
(٤) ابن سعد : جـ٢ ص ٥٨ .

كذلك قدم بعض أشراف بنى تميم ـ وعلى رأسهم ـ عطارد ابن حاجب بن زرارة الى المدينة سعياً وراء مقابلة الرسول ، فانتظروا فى المسجد ، ولما استبطأوه نادوه من وراء حجراته : يامحمد أخرج الينا ، فآذى ذلك الرسول وخرج اليهم وأسلموا بين يديه ومنحهم العطايا(١) ، وقد نزلت فيهم هذه الآية فى سورة الحجرات (آية ٤) : (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم) .

ولما استجاب ملوك حمير ـ وهم الحارث بن عبد كلال ونعيم بن عبيد كلال والنعمان قيل ذو رعين ومعافر وهمدان ـ لدعوة الرسول ـ وكان قد كتب اليهم يدعوهم الى الدخول فى الإسلام ، بعثوا إليه بعد عودته من تبوك كتابا مع مالك بن مرارة الرهاوى يقرون فيه بإسلامهم(٢) . فلما قدم مالك بكتابهم على الرسول ، رحب به وأضافه ، ثم كتب اليهم الرسول كتاباً جاء فيه(٣) : « أما بعد ذلكم فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو ، وأما بعد فإنه قد وقع بنا رسولكم مقفلنا من أرض الروم ، فبلغ ماأرسلتم وخبر عما قبلكم ، وأنبانا بإسلامكم وقتلكم المشركين ، فإن الله تبارك وتعالى قد هداكم بهداه إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من المغنم خمس الله وخمس نبيه وصفيه وماكتب على المؤمنين من الصدقة » .

توالى قدوم الوفود العربية على الرسول فى السنة التاسعة للهجرة ، ومن هذه الوفود : وفد بنى فزازة ـ وعلى رأسهم ـ خارجة بن حصن ، جاءوا يعلنون إسلام قبيلتهم . كما جاء وفد بنى مرة وقالوا له : يارسول الله

(١) ابن سعد : جـ ٢ ص ٦٠ ابن الأثير جـ ٢ ص ١١١
(٢) ابن هشام : جـ ٤ ص٢٥٨ .
(٣) ابن سعد : جـ ٢ ص ١١٨ ـ ١١٩



الروضة الشريفه بالحرم النبوى الشريف

« إنا قومك وعشيرتك ونحن قوم من بنى لؤى بن غالب ، وأظهروا له إسلامهم ، فمنحهم بعض العطايا ، وقدم على الرسول أيضاً وفد بنى كلاب - وهم ثلاثة عشر رجلا - فسلموا عليه بتحية الإسلام وقالوا : « إن الضحاك بن سفيان سار فينا بكتاب الله وسنته التى أمرته ، وأنه دعانا إلى الله فاستجبنا لله ولرسوله وأنه أخذ الصدقة من أغنيائنا فرد على فقرائنا[١]» كذلك أكرم الرسول وفد تجيب حين قدموا عليه مسلمين ومعهم صدقات أموالهم .

هناك وفود أخرى قدمت على الرسول لتؤكد له استعدادها للدخول فى الإسلام ، منها : وفد بلى ، بهراء ، ووفد عدرة ووفد الدارميين من لخم[٢]» وقد أسلمت كل هذه الوفود بين يدى الرسول وتعلموا شرائع الإسلام ، ثم انصرفوا الى أهلها بعد أن منخهم الرسول الجوائز التى اعتاد أن يمنحها لوفود القبائل العربية[٣]

أخذت ظاهرة الوحدة العربية شكلا محسوساً فى سنة تسع ؛ وقد ساعد انتشار الدين الإسلامى بين العرب على إظهار هذه الوحدة . على أن الأمة العربية لم تدخل بأسرها فى الإسلام ، بل ظل هناك فريق يحرص على الاحتفاظ بنظامه القديم ، وهذا الفريق كان أقلية لايؤبه لها كثيراً ، ولم يلبث أن سارع إلى الدخول فى دين الله بعد أن نزلت سورة التوبة قبيل موسم الحج فى السنة التاسعة للهجرة ، وتضمنت بعض آياتها أن المشركين - وهم ممن يشملون هذه الأقلية - سيمهلون أربعة أشهر يحاربون بعدها إن لم يدخلوا فى الدين الإسلامى ، وأن الله ورسوله قد برئا منهم ، يقول الله تعالى : (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا فى الأرض أربعة

(١) ابن سعد : جـ ٢ ص ٦٢ - ٦٥ .
(٢) المقريزى : امتاع الأسماع حـ ٢ ص ٤٥٩ .
(٣) ابن سعد : جـ ١ ص٩٤ - ٩٥ .

اشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين ، وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فأعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ، إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم إن الله يحب المتقين ، فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم . وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لايعلمون »[١]

كان بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين فريق من المشركين عهد عام ، يتضمن « ألا يصد عن البيت أحد جاءه ، ولايخاف احد فى الشهر الحرام » ، كما كانت بينه وبين قبائل من العرب عهود خاصة لآجال معينة[٢]فلما نزلت عليه سورة التوبة وحل موسم الحج فى السنة التاسعة للهجرة : رأى ألا يحج هذا العام حتى يرد إلى كل من عهد إليه من المشركين عهده ، كما كره الخروج للحج أيضاً لأن المشركين كانوا إلى ذلك الوقت يحجون مع المسلمين ويطوف رجال منهم بالكعبة عراة ، ليس على أحد منهم ثوب ، ويزعمون أنهم بذلك يعظمون حرمة بيت الله الحرام فيقول أحدهم : اطوف بالبيت كما ولدتنى أمى ليس على شىء من الدنيا خالطه الظلم .

لذلك ولى الرسول ابا بكر الصديق أميراً على الحج ، وأمره أن يخالف المشركين فى أداء مناسك الحج ، فيقف فى اليوم التاسع من ذى الحجة .

(١) سورة التوبة : آية ١ - ٦ .
(٢) ابن هشام : جـ ٤ ص ٢٠١ .

بعرفة[١] ولا يقف بالمزدلفة[٢] ولا ينصرف من عرفة فى ذلك اليوم الى المزدلفة إلا بعد غروب الشمس ، ويبيت ليلة ثم يفيض منها قبل شروق الشمس يوم[٣] النحر إلى منى[٤].

وكذلك رأى الرسول أن موسم الحج أنسب وقت لإبلاغ المشركين بعض آيات سورة التوبة التى نزلت فى نقض مابينه وبين المشركين من عهد إلا ماعقد لأجل معين فإنه يبقى إلى أجله[٥] فوقع اختياره على على بن أبى طالب ليقرأ هذه الآيات ، لأنه هو الذى عاهد المشركين نيابة عنه[٦]، وقال له ، « اخرج بهذه القصة من صدر براءة[٧]، وأذن[٨] فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى : أنه لايدخل الجنة كافر ، ولايحج بعد العام مشرك ، ولايطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو له إلى مدته » .[٩] فلحق على بن ابى طالب بأبى بكر حتى إذا كان يوم عيد الأضحى قام وأذن فى الناس عند جمرة العقبة بمنى[١٠] بما أمره الرسول صلى الله عليه وسلم . فلم يطف بالبيت عريان بعد ذلك العام . كما لم يحج مشرك تنفيذاً لقول الله تعالى فى سوره التوبة . (ياأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ، إن الله عليم حكيم)

(١) عرفه يقال فيه أيضا عرفات على الجميع ، وبه جاء القران فى قوله تعالى : « فاذا افضتم من عرفات » القلقشندى . صبح الأعشى جـ٤ ص ٢٥٧

(٢) المزدلفه . موضع على يسار الذاهب من منى الى عرفه ، ويعرف أيضاً بالمشعر الحرام ويبيت فيه الحجاج اذا فاضوا من عرفات « ياقوت . معجم البلدان جـ٨ ص ٤٥ ، القلقشندى جـ٤ ص ٣٥٧ .

(٣) يوم النحر : هو اليوم العاشر من ذى الحجه

(٤) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ١ ص٠٠٠

(٥) ابن هشام . جـ ص ٢٠١

(٦) المقريزى : امتاع الأسماع جـ١ ص ٥٠١

(٧) براءة : هى سورة التوبه .

(٨) أذن : ناد

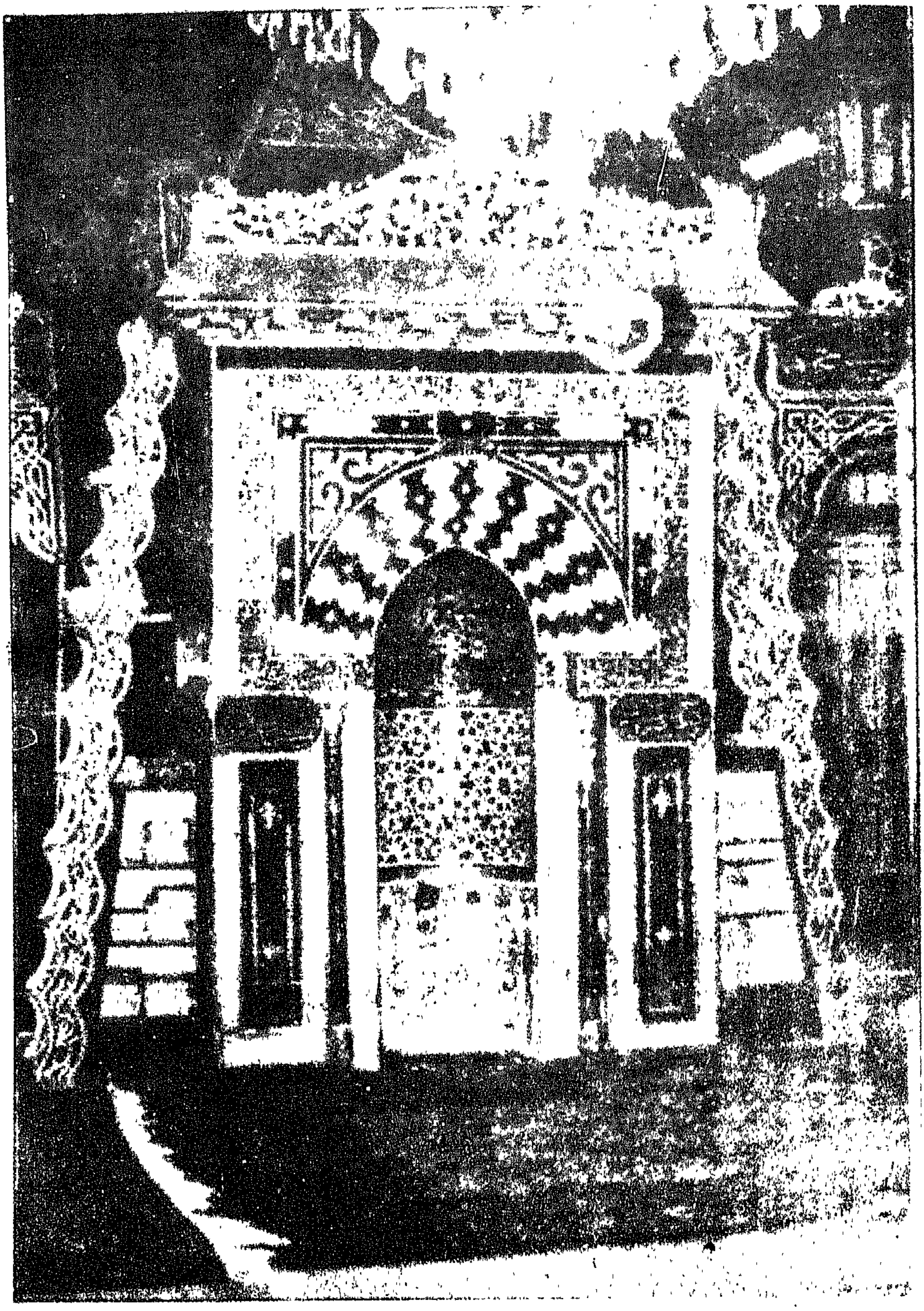
(٩) ابن هشام . جـ٤ ص ٢٠٣ .

(١٠) جمرة العقبة تقع على يسار الداخل الى منى من جهة مكة المكرمة .

لما كانت عقيدة الدولة الإسلامية الناشئة هى الإيمان بالله وحده ، لذلك أصبح من المحتم ألا يكون بينها وبين أعدائها من المشركين عهد[١] ويجب أن تحاربهم هذه الدولة . وقد وقف المشركون على تلك الحقيقة حين تلا عليهم على بن أبى طالب بعض آيات سورة التوبة ، فلام بعضهم بعضاً ـ بعد أن رجعوا من حجهم ـ على احتفاظهم بوثنيتهم إلى ذلك الوقت[٢]، وعولوا على اعتناق الإسلام .

أخذت وفود القبائل العربية فى السنة العاشرة للهجرة تسير من أنحاء جزيرة العرب المختلفة قاصدة المدينة ليعلنوا للرسول إسلامهم وولاءهم له ؛ ومن هذه الوفود وفد الأزد برئاسة صرد بن عبدالله الأزدى الذى قدم على الرسول فى بضعة عشر رجلا ، فأسلموا جميعاً وحسن إسلامهم . وولى الرسول صرد بن عبدالله أميراً على المسلمين من قومه وأمره أن يحارب بهم المشركين من قبائل اليمن[٣]؛ فخرج من المدينة عائداً الى بلده ، فلما وصل جرش ـ وهى من مدن اليمن الحصينة ـ دعا أهلها إلى الإسلام ، فأبوا ، فحاصرهم شهراً ، ودار القتال بينه وبينهم . ثم سار وفد من أهل جرش إلى الرسول وأظهروا له إسلامهم[٤]. كما قدم عليه عمرو بن معد يكرب الزبيدى فى عشرة نفر من زبيد ، وأسلم بين يديه هو ومن معه ؛ ثم منحهم الرسول الجوائز وانصرفوا إلى بلدهم[٥]وجاء وفد خولان الى الرسول يؤكدون له إسلامهم فقالوا له « يارسول الله نحن ، مؤمنون بالله ومصدقون برسوله . ونحن على من ورائنا من قومنا ، وقد ضربنا إليك آباط الإبل وركبنا حزون الأرض وسهولها والمنة لله ورسوله وقدمنا زائرين

(١) أنظر : كتاب حياة محمد لهيكل ص ٤٥٢ .
(٢) المقريزى : امتاع الأسماع جـ ١ ص٥٠١ .
(٣) ابن هشام : جـ ٤ ص ٢٦٥ ، النبهانى ، الأنوار المحمدية ـ ١٨٣ .
(٤) ابن سعد : جـ ٢ ص ١٠١ ـ ١٠٢ ، المقريزى . امتاع الأسماع جـ ١ ص٥٥ .
(٥) ابن هشام : جـ ٤ ص ٢٥٢ ، ابن سعد جـ ٢ ص ٩٢ .



محراب الرسول بمسجده بالمدينة

لك » فقال عليه الصلاة والسلام « أما ماذكرتم من مسيركم إليَّ فإن لكم بكل خطوة خطاها بعير أحدكم حسنة ، وأما قولكم زائرين لك ، فإنه « من زارنى بالمدينة كان فى جوارى يوم القيامة » ثم علمهم شرائع الإسلام وأمرهم بالوفاء بالعهد وأداء الأمانة وحسن الجوار ولايظلموا أحداً[١]. فعادوا إلى قومهم ونشروا الدعوة الإسلامية بينهم ، وحرموا ماحرم عليهم الرسول ، وأحلوا ماأحل لهم[٢].

كذلك قدم وفد مراد مع فروة بن مُسيك بن الحارث بن سلمة المرادى مفارقا ملوك كندة وأعلن إسلامه ، فولاه الرسول على مراد وزبيد ومذحج ، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص ليجبى الصدقات[٣].

هناك وفود أخرى أوفدتها القبائل العربية إلى الرسول ، منها : وفد الرهاويين[٤]ـ وكانوا خمسة عشر رجلا ـ فأسلموا وأجازهم الرسول ، وظلوا بالمدينة حتى تعلموا القرآن والفرائض ، ثم عادوا إلى بلدهم ، وقدم منهم نفر حجوا مع الرسول[٥]

ومن الوفود العربية التى أقبلت الى المدينة فى السنة العاشرة للهجرة ، وفد بنى حنيفة ، وكانوا بضعة عشر رجلا فيهم مسيلمة بن حبيب الحنفى ، فأسلموا وعادوا الى موطنهم باليمامة . وادعى مسيلمة بعد عودته الى بلده أنه شريك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النبوة ، فافتتن به بعض الناس من قومه . وكتب مسيلمة الى الرسول : « من مسيلمة الى محمد رسول الله . أما بعد ، فإنى قد أشركت معك فى الأمر ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشاً قوم يعتدون ». فكتب اليه الرسول : « بسم الله الرحمن الرحيم ،

(١) النبهانى : الأنوار المحمدية ص ١٩٠ .
(٢) ابن سعد : جـ ٢ ص ٨٨ .
(٣) ابن هشام : جـ ٤ ص ٢٤٩ ـ ٢٥١ ، المقريزى امتاع الأسماع جـ ١ ص ٥٠٥ ـ ٥٠٦
(٤) الرهاويون : بطن من مذحج ، ينسبون الى رهاء بن حرب القحطانى
(٥) ابن سعد : جـ ٢ ص ١٠٧ ـ ١٠٨ ، المقريزى . امتاع الأسماع جـ ١ ص ٥٠٧

من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب ، أما بعد فالسلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين »[١].

كذلك رأت قبيلة كندة ان تنبذ ديانتها القديمة وتتحول الى الإسلام ، فأرسلت وفداً إلى المدينة يتكون من ستين رجلا يرأسهم الأشعث بن قيس الكندى . وقد أقروا باسلامهم بين يدى الرسول ثم عادوا إلى بلدهم[٢].

قدم أيضاً على الرسول وفد حضرموت ، ليعلنوا اسلام قومهم ورحب الرسول بقدوم وائل بن حُجر الحضرمى ، وكتب له حين أزمع العودة إلى بلاده[٣]: « هذا كتاب من محمد النبى لوائل بن حجر . قيل حضرموت ، إنك أسلمت وجعلت لك ماقى يدك من الأرضين والحصون وأن يؤخذ من كل عشرة واحد ينظر فى ذلك ذو عدل وجعلت لك ألا تظلم فيها ماقام الدين والنبى والمؤمنون عليه أنصار » .

ومن الوفود التى جاءت المدينة رغبة فى لقاء الرسول والدخول فى الإسلام ، وفد غسان ، ووفد غامد ، ووفد طىء . وكان وفد غسان ثلاثة نفر ، فلما قابلوا الرسول ، أسلموا وشهدوا أن ماجاء به حق ، ثم انصرفوا راجعين الى بلادهم غير أن قومهم لم يستجيبوا لهم حين دعوهم الى الإسلام[٤]. أما وفد غامد فأقروا بالإسلام وكتب لهم الرسول كتاباً بين فيه شرائع الدين الإسلامى ، كما عهد إلى أبى بن كعب بتعليميهم القرآن[٥]. وكان وفد طىء خمسة عشر برئاسة زيد الخيل بن زيد بن منهب الطائى ، فعرض عليهم الرسول

(١) المقريزى : امتاع الأسماع جـ١ ص٥٠٨ - ٥٠٩ .
(٢) ابن سعد : جـ٢ ص ٩٢ - ٩٣ ، المقريزى ، امتاع الأسماع جـ١ ص٥٠٩ - ٥١٠
(٣) ابن سعد : جـ٢ ص ١١٢ - ١١٣ .
(٤) ابن سعد : جـ٢ ص ١١٢ - ١١٣
(٥) ابن سعد : جـ٢ ص ١٠٩ ، النبهانى ، الأنوار المحمدية ص ١٩١

الإسلام فأسلوا وقال : « ماذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون مايقال فيه إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل مافيه » . ثم سماه زيد الخير واقطع له بعض الأراضي في ناحيته(١).

كان الرسول صلى الله وسلم قد بعث خالد بن الوليد إلى بني الحارث ابن كعب بنجران وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثة أيام ، فإن استجابوا اليه فعليه أن يعلمهم كتاب الله وسنة نبيه ومعالم الإسلام وإن أبوا قاتلهم ، فلما قدم عليهم خالد ودعاهم إلى الإسلام ، فأجابوا وأسلموا ، وأقام بينهم يعلمهم شرائع الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ، وكتب إلى الرسول يعلمه بإسلامهم(٢) وإليك كتابه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، لمحمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من خالد بن الوليد ، السلام عليك يارسول الله ورحمته الله وبركاته ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، يارسول الله صلى الله عليك . فإنك بعثتني الى الحارث بن كعب وأمرتني اذا أتيتهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام . وأن أدعوهم الى الإسلام فإن أسلموا أقمت فيهم وقبلت منهم وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ، وإن لم يسلموا قاتلتهم ، وإني قدمت عليهم فدعوتهم الى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعثت فيهم ركبانا ، قالوا : يابني الحارث ، أسلموا تسلموا ، فأسلموا ولم يقاتلوا ، وأنا مقيم بين أظهرهم آمرهم بما أمرهم الله وأنهاهم عما نهاهم الله عنه ، وأعلمهم معالم الإسلام وسنة النبي صلى الله عليه وسلم حتى يكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته » .

فكتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبي رسول الله ، إلى خالد بن الوليد ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك

(١) الطبرى : جـ١ ص٣٩٩ ، المقريزى . امتاع الأسماع جـ١ ص٥٠٨ .
(٢) ابن هشام : جـ٤ ص ٢٥٢ - ٢٦٣ الطبرى جـ٢ ص ٣٨٥ - ٣٨٦ .

الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن كتابك جاءنى مع رسولك تخبر أن بنى الحارث بن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم ، وأجابوا إلى مادعوتهم إليه من الإسلام ، وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدالله ورسوله ، وأن قد هداهم الله بهداه ، فبشرهم وأنذرهم وأقبل وليقبل معك وفدهم ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته[(١)] » .

أقبل خالد بن الوليد الى المدينة ومعه وفد بنى الحارث بن كعب برئاسة قيس ابن الحصين بن يزيد بن شداد . ويقال له ابن ذى الغصة[(٢)]، فلما رآهم الرسول قال : « من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند ؟ قيل « يارسول الله ، هؤلاء بنو الحارث بن كعب ، فسلموا عليه وقالوا : نشهد أنك رسول الله وأن لا إله إلا الله . فقال الرسول : « وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله » ثم ولى عليهم قيس بن الحصين وانصرفوا إلى قومهم »[(٣)]. وعهد الرسول إلى عمرو بن حزم بالخروج إليهم ليعلمهم شرائع الإسلام ويفقههم فى الدين ويجبى منهم الصدقات ، وكتب له كتابا بين فيه الأحكام والزكوات ومقادير الديات[(٤)].

كذلك أرسل نصارى نجران الى الرسول صلى الله عليه وسلم العاقب - وهو أميرهم وصاحب مشورتهم - ، والسيد وهو صاحب رحلتهم - فى نفر من أشرافهم ، فلما قدموا عليه دعاهم الى الإسلام فأبوا وانصرفوا ، وفى الغد حضر إليه ثلاثة من ذوى الرأى من رجالهم وقالوا له : احكم علينا بما أحببت نعطك ونصالحك ، فصالحهم على ألفى حلة ، ألف فى رجب وألف فى صفر ، ثمن كل حلة أربعون درهما ، وعلى أن يضيفوا رسل

(١) ابن هشام : حـ٤ ص ٢٦٣ .
(٢) المقريزى : امتاع الأسماع جـ١ ص٥٠١ .
(٣) ابن سعد : جـ٤ ص ١٠٣ ، حـ٢ ص ٣٨٥ ، ٣٨٧
(٤) ابن هشام : حـ٤ ص ٢٦٥ ، المقريزى ، امتاع الأسماع حـ١ ص٥٠١ - ٥٠٢ .
(٥) ابن سعد : ج ص١٢٩ .

رسول الله صلى الله عليه شهراً فما دونه ، وعلى أن عليهم عارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً إذا وقعت باليمن حرب . وجعل لهم عليه الصلاة والسلام ذمة الله وعهده على ألا يفتنوا ، ولايؤخذ عشر أموالهم ولايندبون للحروب ، ولايفرض عليهم البعوث ، واشترط عليهم ألا يأكلوا الربا ولايتعاملوا به(١).

على أن العاقب والسيد لم يلبثا إلا يسيرا حتى رجعا إلى النبى وأسلما ، وظل نصارى نجران على ماكتب لهم النبى حتى توفى(٢).

رأى الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن انتشر الإسلام فى بلاد اليمن أن يوفد إلى أهالى تلك البلاد أبا موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل ليعلماهم أموردينهم وأوصاهما بقوله : « يسِّرا ، ولاتعسرا وبشرا ، ولاتنفرا » وقال لمعاذ « انك ستأتى قوماً أهل كتاب ، فإذا جئتهم ، فادعهم الى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا هم أطاعوا لك بذلك . فاخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب(٣)» .

ولما وصل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن جماعة من أهل اليمن لايزالون على ديانتهم القديمة ، أرسل على بن أبى طالب يدعوهم الى الإسلام . كما بعث خالد بن الوليد من قبل لنفس هذا الغرض(٤)، وأوصاهم بقوله(٥)« امض ولاتلتفت ، إذ نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك » .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٧٥ - ٧٦ ، اليعقوبى جـ٢ ص ٦٧ : المقريزى : إمتاع الأسماع ج ١ ص ٥٠٢ .
(٢) ابن سعد : جـ٢ ص ١٢٥ .
(٣) النبهانى : الأنوار المحمدية ص ١٣٢ .
(٤) ابن الأثير : ج ٢ ص ١١ .
(٥) ابن سعد : ج ٢ ص ٢٢٢ .

خروج على بن أبي طالب من المدينة في رمضان سنة عشر قاصداً بلاد اليمن فى ثلاثمائة فارس . فلما وصل ارض مذحج لقى فريقاً من اليمنين أبوا قبول دعوته في بادىء الأمر وهاجموه ؛ غير أنه لم يلبث أن حمل عليهم بمن معه وألحق بهم الهزيمة ، ثم دعاهم إلى الإسلام فأجابوا دعوته ، وبايعه نفر من رؤسائهم ، وقالوا : نحن على من ورائنا من قومنا ، وهذه صدقاتنا ، فخذ منها حق الله(١).

كتب على بن أبي طالب إلى الرسول يخبره بما أحرزه من نصر فى بلاد اليمن وإقبال أهلها على الإسلام ، فسر الرسول بذلك ، وأمره بالشخوص إليه . فلقيه بمكة وكان قد قدم إليها للحج(٢).

وهكذا نجحت البعوث التى أوفدها الرسول إلى بلاد اليمن فى أداء رسالتها فتتابع أهالى تلك البلاد على اعتناق الإسلام(٣)، وأرسلوا الوفود لمقابلة الرسول ليعلنوا له إسلامهم . وكان آخر تلك الوفود وفد النخع ـ وهم مائتا رجل ـ قدموا إلى المدينة فى المحرم من سنة إحدى عشر وأقروا باسلامهم بين يدى الرسول ، وكانوا ممن بايع معاذ بن جبل باليمن(٤).

* * *

أصبحت بلاد العرب بعد انتشار الإسلام فيها . تجمع بينها عقيدة واحدة . كما ظهر بين أهلها شعور بالوحدة القومية بعد أن دخلوا تحت لواء الرسول(٥)مما ساعد على قيام الدولة العربية الإسلامية على أساس الوحدة الدينية والسياسية .

---

(١) ابن سعد : جـ ٣ ص ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ ، المقريزى . امتاع الأسماع جـ ١ ص ٥٠٣ .
(٢) المقريزى : امتاع الأسماع جـ١ ص ٥١٠ .
(٣) المقريزى : امتاع الأسماع جـ١ ص٥٠١ .
(٤) ابن سعد : جـ٢ ص ١١٠ ، السهانى · الأنوار المحمدية ص ١٩٣ .
(٥) راجع ، كتاب الدعوة الى الاسلام ص ٤٣ (ترجمة) .

وقد تمتعت مدن العرب وقبائلها بعد أن تحولت الى الاسلام بقسط وافر من الاستقلال الذاتى داخل نطاق الدولة العربية الإسلامية ، فصار الرسول يبعث عماله الى البلاد التى تدين بالإسلام ليعلموا الناس القرآن ويفقهوهم فى الدين ويجبون منهم الصدقات ، ثم يوزعونها بين الفقراء من أهل تلك البلاد ، أو يرسلونها الى المدينة ، وترك الرسول للأمراء الذين أسلموا ماكان لهم من سلطان فى بلادهم قبل اسلامهم .

أما عن المدينة ، فظفرت بمركز ممتاز فى حياة الرسول ، فهى التى آوته ونصرته ، واجتمع بها المهاجرون والأنصار ، ونزل فيها من القرآن أكثر مما نزل بمكة[١]، فأصبحت بذلك مصدر التشريع الإسلامى ، هذا إلى أن الرسول اتخذها مركزاً لدولته ، فوجه منها رسله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام ، كما أقبلت إليها وفود القبائل العربية تعلن إسلامها وولاءها للرسول ، ومن ثم علا شأنها وأصبح العرب ينظرون اليها على أنها حاضرة دولتهم ومصدر سياستهم[٢].

حجة الوداع :

لما أطمأن الرسول إلى أن جزيرة العرب أصبحت كلها تنضوى تحت لواء الإسلام استقر رأيه على الخروج للحج ، ودعا المسلمين إلى أداء هذه الفريضة معه ، فلقيت دعوته قبولا من نفوسهم ، فوفد إلى المدينة كثير من الناس يريدون أن يأتموا برسول الله فى حجته[٣].

وفى الخامس والعشرين من شهر ذى القعدة من السنة العاشرة للهجرة ، سار الرسول من المدينة فى جمع كبير من المهاجرين والأنصار وبعض قبائل

(١) اليعقوبى : جـ٢ ص ٣٢ .

(٢) راجع ماأورده هيكل فى كتابيه : الصديق ابوبكر ص ٧٨ ، ٧٩ ، ١٣٠ ، الفاروق عمر . جـ٢ . ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٣) ابن سعد ، الطبقات الكبرى جـ٣ ص ٢٢٥

العرب وأخلاط من الناس ، بلغ عددهم مايقرب من مائة ألف[١]، تملأ قلوبهم الغبطة لذهابهم إلى بيت الله الحرام ، ولما بلغوا ذا الحليفة[٢]، أحرم[٣]الرسول والمسلمون جميعاً ، ونادى الرسول ملبياً والمسلمون من ورائه : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك ، لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك » . وانطلق ركب الرسول يقطع الطريق الى مكة ، فلما انتهى الحجيج إليها فى اليوم الرابع من ذى الحجة ، دخل الرسول يتبعه سائر المسلمين المسجد الحرام من باب بنى شيبة ، ورفع يديه حين رأى البيت وقال : « اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريما ومهابة ، وزد من عظمه ممن حجه واعتمره تشريفاً وتكريماً ومهابة وتعظيما وبراً »[٤]. ثم طاف حول الكعبة سبع مرات ، وصلى خلف مقام إبراهيم ركعتين ، وبعد فراغه من الصلاة خرج من المسجد إلى الصفا والمروة ، وفى اليوم الثامن من ذى الحجة سار إلى منى ، فأقام بها ليلة ، ثم خرج فى صباح اليوم التاسع إلى جبل عرفات والمسلمون يتبعونه[٥]، وهناك ألقى خطبته التى كان يعتبرها المسلمون دستور الإسلام ، واليك نصها :

« أيها الناس ، إنى والله ما أدرى لعلى لا ألقاكم بمكانى هذا ، بعد يومكم هذا ، رحم الله امرءاً سمع مقالتى فرعاها ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، واعلموا أن أموالكم ودماءكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، واعلموا أن الصدور لاتغل على ثلاث : إخلاص العمل لله ، ومناصحة أهل الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين ، فإن دعوتهم تحيط من

(١) النبهانى : الأنوار المحمدية ص ١٠٢ .
(٢) ذو الحليفة : تقع على مقربة من المدينة ، وبها آبار ، تسمى آبار على ومنها يحرم أهل المدينة إذا أرادوا الخروج للحج أو العمرة .
(٣) أحرم : اى لبس ملابس الإحرام وهى إزاء ورداء
(٤) ابن سعد : جـ٣ ص ٢٢٥ ، المقريزى : امتاع الأسماع جـ١ ص ٥١٧
(٥) المقريزى : امتاع الأسماع جـ١ ص ٥١٠ ـ ٥١٢

ورائهم ، ألا ان كل شيء من امر الجاهلية تحت قدمى موضوع ، وأول دماء الجاهلية أضع دم إياس بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب - كان مسترضعاً فى بنى سعد بن بكر فقتلته هذيل - وربا الجاهلية موضوع كله ، وأول رباً اضعه ربا العباس بن عبد المطلب ، اتقوا الله فى النساء ، إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، وإن لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، فان انتهين فلهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . قد تركت فيكم مالن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب الله وأنتم مسئولون عنى فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت »[١].

تمت رسالة النبى صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفة حيث أنزل الله تعالى عليه هذه الآية (٢) فى سورة المائدة : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) . وقد تلاها الرسول على المسلمين حين نزولها ، فكان لها أبلغ الأثر فى نفوسهم .

أفاض الرسول من عرفات بعد غروب الشمس إلى المزدلفة ، فقضى بها ليلة ، ثم خرج منها قبل طلوع الشمس إلى منى حيث رمى جمرة العقبة يوم النحر ، ثم نحر الهدى ، وسار إلى مكة فى هذا اليوم ليطوف بيت الله الحرام طواف الإفاضة ، ثم عاد إلى منى ، فأقام بها ليالى أيام التشريق[٣]، وكان يرمى الجمار فى هذه الأيام عند زوال الشمس ، ونهى أن يبيت أحد ليالى منى خارجها ، وفى اليوم الرابع من أيام عيد الأضحى ، ركب الرسول إلى مكة ،

---

(١) ابن هشام : جـ ٤ ص ٢٧٥ - ٢٢٧ ، المقريزى ، امتاع الأسماع جـ ٣ ص ٥٢٢ - ٥٢٣ .

(٢) المقريزى : امتاع الأسماع جـ١ ص ٥٢٤ ، النبهانى : الأنوار المحمدية ص ٥٥٩ .

(٣) ايام التشريق هى الأيام الثلاثة الأخيرة من عيد الأضحى . وقد وصفها الرسول بقوله « انها أيام أكل وشرب وذكر الله » ابن سعد : جـ٣ ص ٢٣٨ .

فطاف بالبيت طواف الوداع ، وبعد أن قضى بمكة بضعة ايام انصرف راجعاً إلى المدينة[١].

وهكذا أتم الرسول حجه ، وأدى الناس مناسكهم وأعلمهم مافرض الله عليهم وماأحل لهم من حجهم وماحرم عليهم[٢].

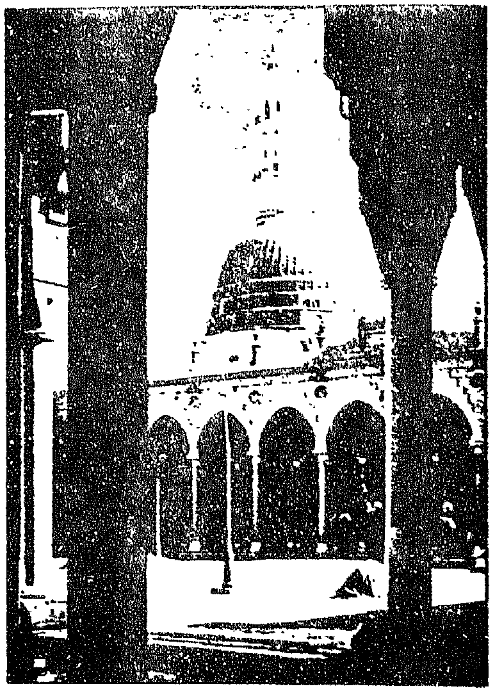
شاهد الرسول صلى الله عليه وسلم أثناء حجه كيف علت كلمة الإسلام وانهار صرح الوثنية فى جزيرة العرب حتى أنه لم يحضر موسم الحج فى السنة العاشرة للهجرة وثنى مطلقاً ، كما تحقق من إخلاص أمراء العرب وزعماء قبائلهم له ، وانضوائهم تحت لوائه ، وبذلك رجع الى المدينة وهو مطمئن الى ذيوع الدين الإسلامى فى أرجاء جزيرة العرب .

لم يكد يمضى شهران على عودة الرسول من حجة الوداع حتى اعتراه المرض ، لكن ذلك لم يمنعه من أن يسير إلى المسجد ليصلى بالناس . وظل على هذه الحال حتى اشتد به المرض . فطلب من أبى بكر الصديق أن يصلى بالناس ، فصلى بهم عدة أيام[٣].

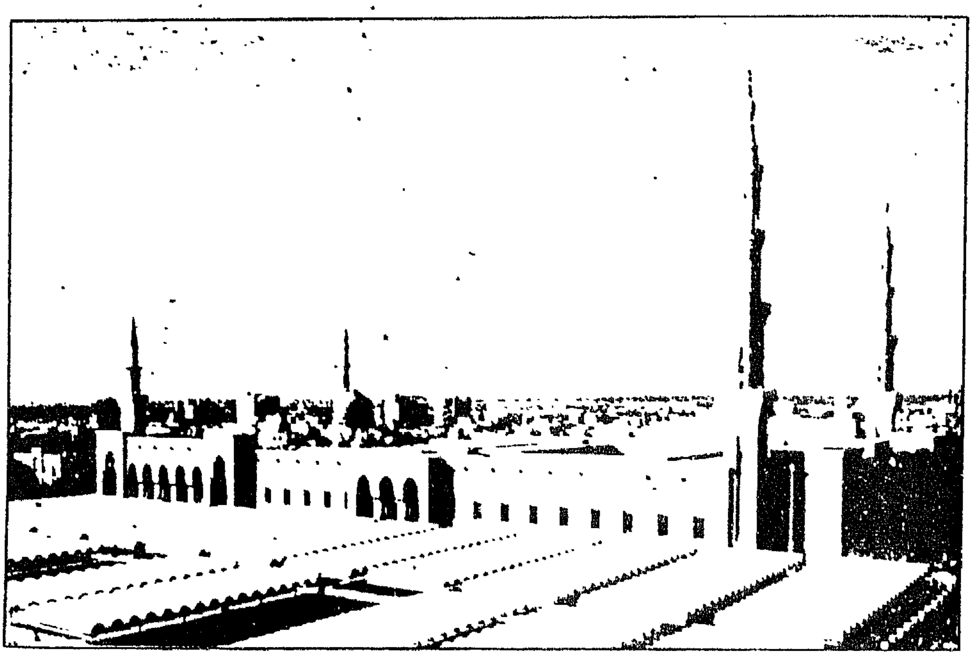
ويروى ابن هشام[٤] انه لما كان يوم الإثنين الذى قبض الله فيه رسوله خرج الى الناس وهم يصلون الصبح ، فكاد المسلمون يفتتنون فى صلاتهم به عندما رأوه . ولم يلبث أن توفى فى ضحى ذلك اليوم لاثنتى عشرة ليلة مضت من ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة[٥] (٨ يونية سنة ٦٣٢م) ، وهو فى الثالثة والستين من عمره ، بعد أن بلغ رسالة ربه ، وجمع شتات قبائل العرب تحت لوائه .

---

(١) المقريزى : امتاع الاسماع جـ١ ص٥٢٤ - ٥٢٩ ، النبهانى : الأنوار المحمدية ص ٥٥٩ - ٥٦٠ .
(٢) ابن هشام : ج٤ ص ٢٧٨ .
(٣) ابن سعد : الطبقات الكبير ج٤ ص ٢٣ - ٣٤ .
(٤) سيرة النبى صلى الله عليه وسلم جـ٤ ص ٣٢١ .
(٥) ابن سعد : الطبقات الكبير جـ٤ ص ٨٩ .
المقريزى : امتاع الأسماع جـ١ ص ٥٣٩ و ٥٤٨ .



مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم



المصادر

و

الفهارس الأبجدية

ابن الأثير : (ت ٦٣٠ هـ و ١٢٣٨م) على بن احمد بن أبى الكرم .
١ ـ الكامل فى التاريخ (١٢ جزءاً) .
أحمد أمين .
٢ ـ فجر الإسلام (الجزء الأول ـ الطبعة الثالثة ـ القاهرة ١٩٣٥م)
أرنولد ـ . Arnold , Thomas W
٣ ـ The Preaching of Islam
نقله إلى العربية الدكتور حسن ابراهيم حسن بالاشتراك مع الأستاذين عبدالمجيد عابدين واسماعيل النحراوى تحت عنوان « الدعوة إلى الإسلام »
الأزرقى : (٢٢٣ هـ) أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد .
٤ ـ أخبار مكة وماجاء فيها من الآثار (جزءان) (المطبعة الماجدية بمكة المكرومة سنة ١٣٥٢ هـ)
الأصبهانى : (٣٥٦ هـ و ٩٦٧ م) أبو الفرج .
٥ ـ كتاب الأغانى (٢١ جزءا)
الألوسى : السيد محمود شكرى البغدادى .
٦ ـ بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب (ثلاثة أجزاء)
مطبعة دار السلام ببغداد
أوليرى : دى ليسى ـ O , Leary : De Lacy
٧ ـ Arabia Before Muhammad
البكرى : (ت ٤٨٧ هـ و ١٠٩٧ م) أبو عبيدة بن عبدالعزيز .
٨ ـ معجم ماستعجم .

البلاذرى : (ت ٢٧٩ و ٨٩٢م) احمد بن يحيى بن جابر .
٩ - فتوح البلدان (القاهرة ١٣١٨ هـ) .
جاد المولى : (محمد احمد) .
١٠ - محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل .
١١ - أيام العرب فى الجاهلية .
بالاشتراك مع الأستاذين على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل ابراهيم
جويدى : Cuidi
١٢ - L.Arbie Ant'eislamique
حتى : فليب Hitti Philip
١٣ - History of the Arabs .
نقله إلى العربية الدكتور فيليب حتى بالاشتراك مع الدكتور إدوارد جرجى والدكتور جبرائيل جبور تحت عنوان « تاريخ العرب » (الجزء الأول) .
ابن حجر : (ت ٧٥٣ هـ و ١٤٤٩ م) شهاب الدين أحمد بن العسقلانى .
١٤ - الإصابة فى تمييز الصحابة : (أربعة أجزاء - القاهرة ١٣٥٨ هـ) .
حسن ابراهيم حسن .
١٥ - تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى
(الجزء الأول - الطبعة الثانية سنة ١٩٤٨ م) .
حمزة الأصفهانى : (ت ٣٠٦ هـ) ابو عبدالله حمزة بن الحسن الأصفهانى .
١٦ - تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء .
ابن خلدون : (٨٠٨ هو ١٤٠٥ - ١٤٠٦ م) عبدالرحمن بن محمد .
١٧ - الغبر وديوان المبتدأ والخبر (٧ أجزاء) :
جرجى زيدان .
١٨ - العرب قبل الإسلام (الجزء الأول - القاهرة ١٩٠٨ م)

ابن سعد : (ت ٢٣٠ هـ) محمد .
١٩ ـ كتاب الطبقات الكبير (طبعته لجنة نشر الثقافة الإسلامية بالقاهرة) .
السمهودى : أبو المحاسن بن عبدالله .
٢٠ ـ كتاب وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى صلى الله عليه وسلم (جزءان ـ القاهرة ١٣٢٦ هـ) .
الشهرستانى : (ت ٥٤٨ هـ و ١١٥٣ م) ابو الفتح محمد بن عبدالكريم :
٢١ ـ الملل والنحل (٥ أجزاء) .
الطبرى : (ت ٣١٠ هـ و ٩٢٢م) ابو جعفر محمد بن جرير .
٢٢ ـ تاريخ الأمم والملوك (٨ أجزاء ـ القاهرة ١٩٣٩ م) ،
ابن عبدالحكم : (ت ٢٥٧) ابو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله ابن عبدالحكم القرشى .
٢٣ ـ فتوح مصر .
ابن عبد ربه : (ت ٣٤٩ هـ و ٩٤٠م)شهاب الدين احمد .
٢٤ ـ العقد الفريد (٤ اجزاء) .
غنيمة : يوسف رزق الله .
٢٥ ـ الحيرة المدينة والمملكة العربية (بغداد ـ سنة ٩٣٦ م) .
ابو الفدا : (٧٣٢ هـ و ١٢٣١ م) اسماعيل بن على عماد الدين .
٢٦ ـ المختصر فى اخبار البشر (٤ اجزاء) .
ابن فضل الله العمرى : (٧٤٢ هـ و ١٢٣١ م) .
٢٧ ـ مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار .
الجزء الأول ـ طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة) .

(ت) ابن قتيبة : (ت ٢٧٦ هـ و ٨٨٩ م) ابو محمد عبدالله بن مسلم .
٢٩ ـ كتاب المعارف .
القلقشندى : (ت ٨٢١ هـ و ١٤١٨ م) ابوالعباس احمد .
٣٠ ـ صبح الأعشى فى صناعة الإنشا (١٤ جزءا) .
٣١ ـ قلائد الجمان فى التعريف بقبائل الزمان) .
(مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة) .
الكلبى : (ت ٢٠٤ هـ) أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب .
٣٢ ـ كتاب الأصنام .
لامانس ـ I ammens : P'ere .Henri
٣٣ ـ L. Arabie Occidentale avant L. H egire
٣٤ ـ Le Berceau de L . Islam . Vol .I
مرحليوث ـ Matgliuth : D . S .
The Relarions between Arabs and Israclites Prior the Rise of Islam
المسعودى : (ت ٣٤٦ ه و ٩٥٦ م) ابو الحسن على بن الحسين بن على .
٣٦ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر (أربعة أجزاء) .
المقريزى : (ت ٨٤٥ هـ و ١٤٤١ م) تقى الدين احمد بن على .
٣٧ ـ امتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع .
(صححه وشرحه الأستاذ محمود محمد شاكر ـ القاهرة ١٩٤١ م) .
النبهانى : يوسف بن اسماعيل .
١٨ ـ الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية .
نيكلسون ـ Nidholson : A . Reynold

٣٩ ـ Literary History of the Arabs

ابن هشام : (ت ٢١٨ هـ و ٨٣٢ م) ابو محمد عبدالملك بن هشام بن أيوب
العافرى الحميرى .

٤٠ ـ كتاب سيرة النبى صلى الله عليه وسلم .
(أربعة أجزاء ـ القاهرة ١٣٥٦ هـ) .

٤١ ـ التيجان فى ملوك حمير .
الهمدانى : (ت ٣٤٣ هـ ، ٩٤٦ م) ابو محمد الحسن احمد بن يعقوب
ابن يوسف بن داود .

٤٢ ـ صفة جزيرة العرب : (جزءان) .
هيكل : الدكتور محمد حسين .

٤٣ ـ حياة محمد (الطبعة الثالثة) ـ القاهرة سنة ١٣٥٨ هـ .
ياقوت : (ت ٦٢٦ هـ و ١٢٢٩ م) شهاب الدين ابو عبدالله الحموى
الرومى .

٤٤ ـ معجم البلدان : (١٠ اجزاء ـ القاهرة سنة ١٩٠٦ م) .
اليعقوبى : (ت ٢٨٢ هـ و ٨٩٥ م) احمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن
وهب بن واضح .

٤٥ ـ تاريخ اليعقوبى : (٣ أجزاء) (نشر المكتبة المرتضوية
بالنجف ـ سنة ١٣٥٨ هـ) .

فهرس الأعلام

« تنبيه » : اعتمدنا فى ترتيب الأسماء على اول الأسم دون المبالاة بأداة التعريف ، وبألفاظ : الأب والابن والأم . مثال ذلك : (ابن حبشية) فقد ذكرناه فى حرف الحاء ، (أبو سفيان) نجده فى حرف السين (وأبو طالب) فى حرف الطاء ، (أم عمرو بن المنذر) تجدها فى حرف العين وهلم جرا .

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

هشام بن المغيرة المخزومى ـ ٢٣
همام بن مرة ـ ١٨

فهرس الأمم والقبائل والبطون والعشائر والطوائف

فهرس البلاد والمدن والمواضع والجبال والأنهار